

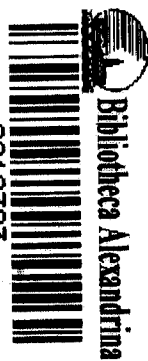
إخوار الغرب

أندرية مالرو

ترجمة: محمد سيف



كتاب شرقيات للجميع (١١)



0018383

إخوان الغرب

إغواء الغرب
أندريه مالرو

ترجمه: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٥



© دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي - هدى شعراوي
باب اللوق - القاهرة

س . ت : ٢٦٩١٩٨ ت : ٣٩٠٢٩١٣

غلاف وإخراج: ذات حسين أبوزيد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية

للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



إِخْوَانُ الْغَرْبِ

أُتَدْرِيه مَالِرُو

ترجمة : محمد سيف



العنوان الأصلي:

La tentation de l'occident

André Malraux

Grasset

«إن الذي يقتفي الآثارَ زمنًا طويلا
يتشابهُ مع ظلهِ...»

مثل هندي من المالابار

إليك، ياكلارا،

في ذكرى معبد بانتياي - سراي

ملحوظة

الرسائل التي تكون الجزء الأعظم من هذا الكتاب، كتبها م. م. أد، فرنسي، في الخامسة والعشرين من العمر، لديه بعض المعرفة بأعمال الصين، والسيد لينج. و. ي.، صيني، في الثالثة والعشرين، المأخوذ بفضوله للثقافة الغربية، ذلك الفضول الذي عانى منه بعض من مواطنيه، والتي هي ثقافة كتيبة فحسب. وقد تبادلوا هذه الرسائل خلال رحلات قاما بها، الأول في الصين، والثاني في أوروبا.

ولئن لم ير البعض في السيد لينج رمزاً شرق أقصوي. فإن رمزاً كهذا الذي يرويه ليس وارداً تَحَقُّقُهُ. إنه صيني، كما تقدم، فإن له من الحساسية والفكر الصينيين قدراً لا يدفعه بدرجة إلى إعدام الكتب الأوروبية، ليس غير.

وهذه الرسائل تم انتقاؤها. ونشرنا لها، فإننا نهدف إلى تحديد أبعاد كل من الحساسيتين، وأن نحفز الذين سيقرونها على التفكير في طبيعة كل من مشاعرهم وعقولهم، التي تكاد تبدو واحدة.



على سطح الشامبورد

على أني ما لقيتكم. أيها المتوحشون الذين يظهرون على
غير انتظار ويقدمون للبحارة الفاكهة التي لها شكل القرون على
الصحاف البدائية، بينما تُطلّ القباب من وراء النخيل، أينها
الكشوف... إن الرجال الذين يتصيدون الأشكال واحداً بعد الآخر
ويوصدون عليها الكتب قد أعدوا كل ما يعتمل في عقلي. موكب
من الكائنات والمشاهد الطبيعية يتراءى لمخيلتي ببطء، هذا
المساء، في صمت الليل على البحر وديبب الآلات المنتظم حتى
يكاد يتحد معه... هدوء عظيم، بحر مصقول، ساطع، تتراقص
فيه لجج الأعماق... في أثر سير السفينة تختفي ظلال آخر
العشائر، من رافعي جماجم ثيران الأوروش الضخمة - ترى رايات
هي أم أسلاب؟- الذين يخطط ظلهم المتعرج السهل. على
مبعدة، جيوش آسيا الوسطى العاصفة، ببيارقها العالية المهيمنة
على كل ما في طريقها، والمزخرفة بالوشوم العتيقة السوداء. في
الزمن الغابر.

في عمق الحريم، المحظيات، على مقربة من كوة في الحائط،
كانت إحداهن (وهي التي ستصبح وصية فيما بعد) تُحدث

حَصِيًّا ذَا عَيْنَيْنِ مُسْمَكَتَيْنِ، وَفِي الْقَصْرِ الْبِنَفْسَجِي، يَتَفَحَصُ
الْإِمْبَرَاطُورُ الْبَقَايَا الْأَثَرِيَّةَ الَّتِي قَامَ عَلَى الْبَحْثِ عَنْهَا فِي كُلِّ أَنْحَاءِ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ. كَانَ الْجَوُّ بَارِدًا. وَفِي الْخَارِجِ، صَرَاصِيرُ الْحَقْلِ
الْمُتَجَمِّدَةِ تَتَسَاقَطُ مِنْ عَلَى الْأَفْرَعِ فَوْقَ الْأَرْضِ الصَّلْبَةِ مُحَدَّثَةً
أَصْوَاتًا كَأَصْوَاتِ اصْطِدَامِ الْحَصَى. فِي وَسْطِ أَحَدِ الْمِيَادِينِ، السَّحَرَةُ
الْأَشْرَارُ، يُحْرِقُونَ عَلَى مَحْرَقَةٍ مِنْ أَحْطَابِ زَكِيَّةِ الرَّائِحَةِ. الدُّمَى
الْخَشَبِيَّةُ الصَّغِيرَةُ الْمُحْفُورَةُ، الَّتِي كَانَتْ تَسْتَخْدِمُ رُقَى الْأُمِيرَاتِ
تَفْرَقُ وَهِيَ تُلْقَى كَالسَّهَامِ النَّارِيَّةِ. وَالْجُمْهُورُ -جَمْعٌ مِنَ الْعَمِيَانِ!-
يَتَرَاوَعُ بِحُمِيَّةٍ. عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْأَفْقِ، فَوْقَ الْأَعْشَابِ الْبَرِيَّةِ، خُطَّ
مِنَ الْهَيْكَلِ الْعَظْمِيَّةِ يَفْتَرِسُهُ النَّمْلُ الْمُتَعَقِبُ لِسِيرِ الْجِيُوشِ.
وَبِالْقُرْبِ مِنَ النَّيْرَانِ، السَّاحِرَاتُ الْأَرَامِلُ يَقْرَأْنَ الطَّالِعَ.

وَتَهْرُولُ الثَّعَالِبُ مَسْرَعَةً وَهِيَ تَعْبُرُ الْأَنْحَاءَ.

كُلُّ رَبِيعٍ يَغْطِيهِ بَرَارِيٌّ مَوْنُغُولِيٌّ بِزَهْوَرٍ تَتْرِيَّةٍ، بَيْضَاءُ ذَاتِ
قَلْبٍ أَرْجَوَانِيٍّ. تَعْبُرُ عَلَيْهَا الْقَوَافِلُ؛ التَّجَارُ الْأَفْذَارُ الَّذِينَ يَسْقُونُ
الْجَمَالَ الْكَبِيرَةَ الْمَشْعُرَةَ الْمُحْمَلَةَ بِالْخَرَجِ، الَّتِي تَتَفَتَّحُ عِبْرَ الْمَرَاحِلِ
كَالْرِمَانِ. وَكُلُّ صَنْعَةِ الْجَنِّ لِمَمْلَكَةِ الشَّلُوجِ، مِنَ الْأَحْجَارِ الَّتِي لَهَا
لَوْنُ السَّمَاءِ الصَّافِيَّةِ أَوْ النُّهْرِ الْمُتَجَمِّدِ، وَالْأَحْجَارِ الَّتِي لَهَا
انْعِكَاسَاتُ الثَّلْجِ وَالرِّيشِ الْمَبْلَلِ لِلْعَصَافِيرِ الرَّمَادِيَّةِ، وَجُلُودُ الثَّعْبَانِ
وَالْفَيُورُوزِ الْمُطْعَمِ بِالْفَضَّةِ تَنْهَالُ عَلَى أَصَابِعِهِمُ الرِّشِيقَةَ.

مِنْ أَعْلَى الصَّوَامِعِ ذَاتِ الْأَسْقَافِ الْأَفْقِيَّةِ لِمَقَاطِعَاتِ النَّتَبِ،
يَنْزِلُ أَجْمَلُ الْأَسْرَارِ، عَلَى طُولِ الرَّمْلِ الْمَلْبَدِ، حَتَّى سَاحِلِ الْبَحْرِ
حَيْثُ يَتَفَتَّحُ فِي عَدَدٍ لَا يُحْصَى مِنَ الْمَعَابِدِ الْمُقْبِبَةِ الَّتِي تَعْلُوهَا
الْأَجْرَاسُ الرَّاعِشَةُ. الْبَشَرُ مِنْ بَنِي جَنْسِيٍّ يَأْتُونَ إِلَى هُنَا عَلَى

قوارب بغير أشرعة ولا أعين. يدخلون الموانئ مع النهار.

الماء المزد الداكن، يردّ أصداء الصيحات الأولى للبحارة بأوضح منها ؛ وبأعلى القوس المعتم، تعلو المدينة كلها بالخائط الذي يكللها والمزهر بالمعابد شيئاً فشيئاً مع شروق الشمس ؛ على امتداد منظرها الجانبي الجاف تظهر غُرر وزركشات الضوء. هاهم يبلغون الأرض، بعد الاصطدام ببعض الصخور. وهاهم يتجولون، سعداء وقلقين، وبالشوارع ذات الروائح التي تزعج أنوفهم، تتبعهم أصوات القطع الفضية التي يسعى لمبادلون إلى إثبات عدم زيفها برئها بمطارق صغيرة. فجأة لمحو امرأة، وانسدل الستار، فعكفوا على تذكر وجهها المريح وقدميها الصغيرتين، وسروالها الحريري والبقعة التي على صدرتها، ففي بطن غابة سوداء، ظل أشقر وزهراء معذبة...

هاهم يزورون بنوك الرهونات، وهي أبراج مثقبة بالفتحات، بجوار كل فتحة يوجد صحن مليء بالكبريت الذي يُلقى به الحراس على اللصوص عندما يحاولون الاستيلاء على النفائس المعهود بها للدولة.

من ثم يعودون، يتخرجون على نحوٍ فظٍ بالمحفّات الثقيلة، الآن قمتلىء حجورهم بأكوام مشترياتهم. هذا الثوب من الساتان الأبيض، كان فيما مضى ثوب الحداد لأُميرة من الجُزر، راهن أحدهم على تاريخ موتها بلؤلؤة حمراء بين شفتيه. في عمق مجرى السلام الشامل، الكهول المحاطون بالشمس يقومون أمام المراهقين الوقورين بعمل الإشارات السحرية التي تحدد بناء المدن، البعيدة جداً، في تركستان أو التبت، وعند تجار الطيور،

البيغاوات التي تتحدثُ لغاتٍ معقدةً، تَلَقَّنَتْها فيما مضى، لدى الحكماء ذوي الطواقي المجوسية، في الأربعين ألف جزيرة البربرية توغل المغامرون البيض إلى الداخل مسترشدين بالخبثاء، المشرقيين المنتمين لجمعيةات سرية. وبعد أن تعلموا المنشورية وحلقوا حواجبهم، تزوجوا هناك بالمنشوريات. كان من بينهم جنرالات مرموقون، يقودون الجيوش الامبراطورية. وقد تنكروا تماما لأصدقائهم، والذين حاولوا رؤيتهم تعرضوا للموت بأوامرهم وفي الشمال الفطن المتجبر، كان الامبراطور وحيداً في عمق أكثر القصور مهابة في المدينة المحرمة، ينشر أصابعه الخفية على صين العمل، صين الأفيون، وصين الحلم، عجزٌ كبيرٌ أعمى مُتَوَجُّ بالخشخاش الأسود... ظلال عتيقة، حكماء وعسكريون، أباطرة تانج ! أروقةٌ صاخبة تتصادم فيها كل عقائد وأنواع سحر العالم، مفكرون تاويون، ملكات مثبتات على الحائط بالأسهم الغليظة، فرسان بأسلحة مزينة بذيول الخيل، جنرالاتٌ مَوْتَى تحت خيام ضائعة بعد ستين انتصار، قبورٌ لم تعد تحفظُ شيئاً، في قلب الصحراء، محفورة صُورٌ خَلِيها وجنودها على شواهد متفصلة، أغانٍ نادية، سهامٌ متوازية وجلودُ حيوانات تتقدم عبر الأراضي الجذباء في ليلٍ صقيع فماذا سَأجد من الهجمة الطرشاء لغزواتكم، سوى الأطلال؟



من لينغ إلى أ. د

مارسيليا.

السيد العزيز،

نادرا ما تستدعي أوربا التخيلات الجميلة، ولقد أتيتُ إليها
بفضولٍ عدائيٍّ، فالأوهام التي خلقتها فينا، نحن الصينيين، كانت
من قلةِ الواضح بما لم يمكننا معه أن نجد فيها إرشاداً أو نجد متعةً
في تحويرها؛ فالكتب، وقلقنا الخاص، جعلنا نبحث عن فكر أوربا
بأكثر مما نبحث في تجسّداتها. وحاضرها يجتذبنا أكثر من الإطار
المهشم لماضيها الذي لا نطلب سوى بعض الإيضاحات حول قوته.

إن اسمها لا يثير في الذاكرة لا لوحات ولا رغبات. فالصور
الفوتوغرافية التي شَهِدْتُها لها في الصين لم تُظهر كما يجب حركة
الجمهور في الغرب، بحيثُ كُنْتُ أعياها كبلادٍ افترستها الهندسة.
فقباب المنازل سقطت، وصارت الشوارع مستقيمة، والملابس
صارمة، والأثاثات قائمة الزوايا. وصارت حدائق القصور تُعرضُ
-بشكل لا يخلو من تناسق- النظريات الهندسية. فما يبدو لي أنه
روح أوربا، هو الإبداع بلا توقف من خلال العمل، لعالم صار
العملُ قدراً له. فالروضُ لإرادة الإنسان قد هَيِّمَنَ على كل شيء،
فيها

بل إن المجنونك^(*)، ذلك الحيوان الأليف، يجعلني أري في القارب
الشراعي الفرنسي مجموعة من المثلثات الهندسية. وكانت أوربا،
أكثر ماتكون بالنسبة لي، هي المكان من الأرض الذي تحققت فيه
المرأة.



(*) المجنونك: القارب الصيني

منه إليه

باريس.

السيد العزيز،

أود أن أضيف بضع كلمات على خطابي الأخير الذي أرسلته لك يشجعني في هذا من ناحية أنني أبدأ في التعرف على القيمة المرتبطة بحسن نية المثقفين الفرنسيين، الذين يشبهون قليلاً هؤلاء الذين نراهم بالصين ومن ناحية أخرى لأن بضعة أسابيع قضيتها هنا أضفت تحديداً على انطباعاتي. إنني أرى في أوروبا بريرية تم تنظيمها جيداً، حيث فكرة الحضارة وفكرة النظام تمتازان يوماً عن يوم. فالحضارة ليست قُطْ شيئاً اجتماعياً، وإنما نفسي؛ إذ لا يوجد سوى أمر واحد حقيقي: هو الشاعر.

ماذا أقول عن هؤلاء البشر من بني جنسك؟ إنني أدرسهم، وأكُتِبُ على اللجوء إلى الكتب. وأنا أعرف أن مترجمينا، لكي يجعلوننا نعرف عادات أوروبا وكذلك أدبها، قد عمدوا لاختيار بلزك، وفلوير، والطبيين الفرنسيين، والروايات الأولى لجوته، وتولستوي، وديستوفسكي. وتحليلهم لموهبة بودلير أظهرها عناية فائقة، لكن هؤلاء المسيحيين الاستثنائيين، عديمي الشعور تقريباً، غير أولئك الذين يصرخون ويكون لآلام إماً بوفاري والإخوة كرامازوف - ومع ذلك...

أي انطباع بالألم يطنى على مشاهد الحياة عندهم، في كل هذه الكائنات المسكينة التي أراها في شوارعكم، فلا تُدهشني حيوتكم بنفس القدر الذي تدهشني هذه الوجوه المتألّمة التي لا أستطيع تجاهلها. لأن الألم يبدو وكأنه في صراعٍ وجهاً لوجهٍ مع كل واحدٍ فيكم ؛ وبإلها من معاناة خاصة!

إن عقيدتكم، السالفة، التي نظمت عالمكم بدهاءٍ، توقظُ فيّ خصومةً ما، فليس بمقدوري النظر بغير احترام للصور شبه البربرية التي تأبّد، بسببها، عذاب هائل متناسق. ولكنني لا أستطيع أن أمعن خيالي بغير أن يضطرب تأملي في أن كل قوة الحب تتركز على جسد مُعَدَم. والمسيحية تبدو لي أنها المدرسة التي جاءت منها كل الأحاسيس التي تشكل بها الوعي بأن الفرد يتعيش معرفياً على ذاته. لقد ذرعتُ صالات متاحفكم، وجعلتني عبقرتكم أطفح ضيقاً. لقد وجدتُ قوةً متوحشةً تحيا في آلهتكم نفسها، وفي عظمتها المبقعة كصورها بالدموع والدم. فحتى الوجوه الهادئة التي أردت أن أحبها منها، كان قَدْرٌ مأساويٌّ فوق أجفانها المسدلة: لأنكم اخترتم لها أن تكون ممثلةً للموت.

هناك أيضاً رؤانا نحن للحياة، التي هي تهجدٌ حسي وهي تحاصرني بأكثر مما تُضيّق عليّ الرؤى الأخرى. ألا تشعرُ إذن قبل كل شيء أنه لا بد لك أن تكون من جنسٍ متوج بتاجٍ ثَقِيل من القوة والألم، لكي تُفاخر باكتشاف جسد امرأة؟ إن عملاً فنياً حسيّاً من هذه الأعمال التي تحبونها، عملٌ من شأنه أن يشير القادرين على تذوقه بهذه الطريقة، وهذه الجاذبية أو القدرة هو عمل غير ناضج. وما يعطي القيمة لأنفس لفائفنا الحريرية، هو

قدرتها على أن تولد فينا الشعور بالتنوع اللانهائي للعالم.
والفنون، فضلا عن ذلك، قليلة النبل في ذاتها، وما يرفع من
قدرها يأتي من عناصر الصفاء التام في صيغها اللانهائية التنوع
فهذه الحزفيات ليست هنا إلا لتأسر، واحدا بعد الآخر، الأشكال
الألف للجمال التي تواربها تلك الغرفة المعتمة التي يكتنفها
الصمت.

فهي لا تُحصَى، ومجهولة، تلك الانفعالات المحكمة التي
تجعلنا نهيم حول العالم، وأيدينا متحدة في قدح من اللذة لا
تستقر على شيء فيه، بمثل ما لا تستقر تلك البقع الزائلة التي
يشكلها خيالنا من الظل...

والفنان ليس هو الذي يخلق؛ إنه الذي يشعر. ومهما تكن
الصفات، والجودة لعمل فني ما، فهو غير ناضج، بما أنه لا يعدو أن
يكون اقتراحاً جمالياً. وكل الفنون زخرفية. فقد ننتقي في
حدائقنا شجر البامبو، وهو الذي تحب عصافير الخيال المتنوعة
الألوان أن تأوي إليه، وأشجار البانيان، التي لها جلال الأناشيد
الجنازية، وقد نعهد برعايتها لبستاني كفاء، ونعطي له راتبه
وبعض الاحترام. لكننا إذا نظرنا إلى النهر الذي تنعكس عليه :
سنجد أنه الوحيد الجدير بها.

كل حضارة تُنمذج حساسية ما. والإنسان العظيم لاهو الرسام
ولا هو الكاتب ؛ إنه الذي سيعرف كيف يصل بهذه الحضارة لأعلى
مراحلها. مُنقياً في ذاته حساسية جنسه، عاملاً بلا توقف، على
جعلها تعبر عن نفسها باتجاه متعة أعلى. وهذه هي حياة الذين
في عداد ذلك النوع من الناس بيننا والذين تسمونهم بالأساتذة.

إن التفوق بالنسبة لكم. هو تفوق رجل السلاح، وتفوق الألم، وبالنسبة لنا هو تفوق الكمال، الذي يأتي من شدة العاطفة التي يوقظها فينا شعورُ ما. والكمال عندكم، هو التضحية. والإعجاب يأتي من فعلٍ أما عندنا فهذا الكمال وذلك الإعجاب هما فقط الوعي بالوجود على النمط الأكثر جمالاً. فأنتم من خلال الأشكاله القديمة لفتونكم التي أسميتموها بالجليلة، تعبرون عن الفعل وليس عن الحالة. هذه الحالة التي نعرف عنها أنها طوع أمر كل من يحوزها، وهي حالة الصفاء، حالة تفتت النفس على مشهد من النور الأبدى، التي لم يحدث أن بحث الغريون عنها أبداً، ولا عن تعبيرها، ولا حتى استعانوا بالقبس الخافت الذي يعرضها في بعض مواضع البحر المتوسط.

هذه الحالة هي التي جاء منها التعبير الوحيد الجليل للفن وللإنسان: وهي حالة السكينة.

وكنْتُ أودُّ، أيها السيد العزيز، أن أحدثك أكثر عن البشر ؛ ولكنني لم أرَ بعدُ سوى الأعمال.



منه إليه

باريس.

السيد العزيز،

إنني أرى الأوربيين، وأستمع إليهم، وأعتقد أنهم لا يفهمون ماهي الحياة. لقد اخترعوا الشيطان؛ وإنني لمتنُ لخيالهم في هذا؛ ولكن منذ أن مات الشيطان، يخيل لي أنهم صاروا فريسة ألوهية فوضى أعلى منه مرتبةً : وهي العقل.

لقد قُذِّ العقل عندكم بطريقة أحادية، مثله في ذلك مثل الحياة، التي لا تدركونها إلا مُجزأةً. فدائماً أنتم متجهون نحو هدف، ونحو ذلك الهدف أنتم محمولون عن بكرة أبيكم. أنتم ترتدون الغلبة فماذا تجدون تحت انتصاراتكم البائسة؟

نحن الصينيين، لا نريد إدراك حياتنا، إلا في مجموعها. ليس لأننا قادرون على معرفة هذا المجموع. لكن لأننا نعرف أنه يتخطى كل فعل من أفعالنا، وأنه بالضرورة يتجاوزه. ومثلما، قد يُوجد بين التخطيطات القديمة رسمُ ذراعٍ ولا يُعرفُ شيءٌ عن الموديل صاحب هذه الذراع في الحياة، أنتم تعرفون أنه كانت في نهاية هذه الذراع يدٌ ما، ونحن بنفس الشكل. نشعر أنه بعد كل فعل، أيا ما كانت أهميته، فإن له حياة تظل خفية، تبعث بتفرعاتها التي بغير عدد. فالحياة متوالية من الممكنات من بينها لذتنا أو ميلنا الخفي

سواء للالتقاء أو للزخرفة... ونحن لا نريد أن نفعل بعقلنا، إلا ما يفعله المتفرج على لعبته الخاصة، لعبة التحوير المتوالي للكون. وأعلم أن ذلك يبدو لكم عبثاً. لذا فإن حركات الظل التي تكون كل ما يمكن لروح نقية أن تسترقه بالعالم وما يعرضه العالم نفسه بصوت خفيض تبدو لي مع هذا أنها العرض الوحيد الذي يمكنه بغير خجل أن يتمتع كائننا متحضراً.

ومن المؤكد، أنني، برغم الاهتمام الذي أصرفه، ليس بمقدوري أن أُلِمَّ بعملٍ فني قدرَ إمامكم. فحساسيتي تتعارض مع ما يحده عقلي. ولست أرى في ذلك ما يعني أن لديكم الرغبة في الواقعية، وإنما تعبير عن نقص في الحساسية فهل لايحظى المقبل من الحياة بنصيب من الواقعية لمجرد أنه مستقبل؟ والأهمية التي تضفونها على بعض الأقدار التي تعصف بكم، لأنكم لم تتفهموا أنها لم تعد بنفس الحدة، ألا تأتي من ذكاء غافل، وربما مُعَدَّ بطريقة سيئة بواسطة عقيدة لتألو جهداً في أن تزرع فيكم الاعتقادَ بتحقيقكم الشخصي؟ لقد صنعتُم من حياتكم قُرْباناً للقوة. فأنتم تخلطون بينكم وبين أفعالكم، وحتى في فكركم فأنتم ما زلتُم بعدُ تفهمون بصعوبة أن الوجودَ ليس مشروطاً بالفعل، وأن العالم يغيركم بأكثر مما تغيرونه...

كل شيء واضح فيما نسعى نحن إليه ونحن نريد، سواء في الفعل أو في الفكر، أن تكون لنا القدرة، بإعازٍ من حساسيتنا واللحظة، على الاختيار بين المظاهر المتواليّة للأشياء التي يعطيها الزمن. فهذه هي إمكانية التغيير الدائمة التي تَنشُرُ على الصين سُلْطَنَتها الغامضة والمتعددة؛ والتي تأتي منها تلك الرجفة الجلييلة

التي نبحث عنها. فكم من التجار رأيتهم يقامرون ضد واحدٍ من مستخدميهم بكل تجارتهم، فيخسرون ويغيرون مواقعهم بمواقعٍ غُرماتهم ؛ ثم بعد ذلك بوقتٍ طويل، يغامرون ثانية، فيكسبون ويستعيدون الزمام الذي فقدوه! ونادراً ما تتحقق من أن على وجوههم لمحةٌ ندم. فليس بمقدرٍ أحدٍ أن يعطي أهميةً للحظات المؤلمة لحياة في الغيب، لكنه يشعر من خلال هذه اللحظات بالواقع ويأن هذا الواقع ربما يأتي عليه حين يزينه بالثروة.

لقد أثقلتُم الدنيا قلقاً. وباله من شكلٍ مأسويٍ أسبغتموه على الموت! إن رؤيةً مقبرةٍ في مدينةٍ أوروبيةٍ كبيرةٍ تُوقظ في مشاعرٍ شنيعة. فيأتي في الرؤيا هؤلاء الأحياء الذين نراهم يعيشون بيننا اليوم، وهم في سِياج الموتى حيث يهيمن طائر الصمت على جمع القبور المتألفة...

في أرض الموتى هذه المتشربة بالرقعة، عاطفتان فقط نشعر بهما: الألم والخشية. وفي كتاباتكم الشعبية، نجد أن الموت هو نفسه رمزُ الرعب. ولكم تبدو بعيدة عنكم الشياطين الخضراء والصفراء التي تَعِجُّ بها النكاتُ العديدة لدينا، وتلك التنانين التي تُولي ظهرها عندما تُرَبَّتْ عليها وكل هذا الحشد من الوحوش الرؤومة التي يتجرجر خلفها، بغير أن نشوش على جلال الموت الآسيوي.

بِم أن هذا النفوذ الثابت للموت، الذي اعتقد الأوروبيون أنهم قد فطنوا إليه في الصين ليس سوى وهم وجنون. فإن القبور التي لا تُحصى التي تركناها، بغير تصوّرٍ للدنّس، تأوي إليها الأرانب، تُقوّي فينا إحساساً بأنه لا يوجد مشترك مع شعورك بالموت. فهذا

الشعور عندنا عاطفة رزينة وهو كذلك وعي بأن الكائن لا ينحصر في ذاته، وبأنه وعاء للوجود أكثر منه وسيلة للفعل. إن كلاً منا يُكرّمُ موتاه، والموتى، هم أشبه برموز قوة تغمرنا، وهذه القوة هي أحد أنماط الحياة، ولو أنه غير معروف عنها سوى وجودها. لكن هذا الوجود هو ما نشعر به. فهي تهيمن علينا وتشكلنا بغير أن نستطيع الإمساك بها. إنها حالة بنا كما لو أننا بشر، وكما لو أنكم مهندسون، حتى في الألوهية...

إن الزمن هو ما تصنعونه به، ونحن من يصنعنا الزمن.



منه إليه

باريس.

السيد العزيز،

لقد اتبعتُ نصائحك، وقد عدتُ من روما حيث قضيتُ بها وقتاً طويلاً بعض الشيء. ولقد تحققتُ فعلاً من جاذبية هذه الحديقة الجميلة لبيع العاديات المهملة، التي تُقدّم فيها آخرُ الآلهة اللاتينية هذا التناسق الجاف إلى حد ما والذي تسمونه الأسلوب. ولكن مع ذلك قد توارت فيها، على نحوٍ خفيٍّ بعض الموضوعات شديدة القوة للتأمل المسترق لأوربا، فهل تعترف لي بذلك؟ إنني لم أجد في روما هذه الروح التي تغمر عدداً من المدن الفريدة، والتي ذهب بي غيابها إلى حد التعاسة. ومع أنني تعلمتُ شيئاً فشيئاً أن أنفعل بهذا المشهد الطبيعي الذي حاولتُ فيه التذكارات الكلاسيكية عبثاً أن تنظم فضاءً لا متناهيًا، حيث أحاطَ بالمعابد فناءً من الأعمدة المهشمة والكنائس البائسة التي زاحمت الروائع. إلا أنني لم أستطع أن أتعلم أن أجد كنه الشعور، الذي يصنع بالنسبة لنا، قيمة هذه الأماكن التي حَلَفَها لنا الماضي.

لقد فتشتُ عن روح روما العجوز، تحت آلاف الأشكال الشهبانية التي تركتها لنا ثلاثة قرون، كما لو كنت أفتشُ عن جذعٍ أثريٍّ تحت أنسجةٍ ثمينة. لقد جئتُ إلى هنا مدعواً من

انتصار العقول السالفة على أوهامها: فلم أجد أولاً سوى المتعة التي يجلبها الماء المثلج والأشكال التي توزعه في الطرقات التي كُست الشمس أحجارها العجوز فقد كان صوتها المليء بالعظمة القائمة محتجبا وراء أهازيج النوافير. تلك النوافير التي قرأت بالكتب فيما مضى عن سحرها، لقد طغى التوفز الشهواني لألهتكم وصدفياكم البرونزية على المدينة المقدسة، وكل شارع كان يخفي في ظله الظل الحسي لبرنان.

لقد جعلتني بعض اللوحات الحائطية التي ترسم أرض قرطاج أقل إحباطا ربما وأقل افتتاناً مما جعلتني عليه هذه المجموعة من الأروقة والمنقوشات الخشبية، والأعمدة المزهرة والحوانيت، ومما جعلني فيه هذا الفراغ الكبير الذي تظهر فيه خرائب الساحة على خلفية من البيوت الرومانتيكية التي تعلوها القباب المزينة. فمن قصر أدريان مروراً بمحلات العاديات، التي بداخلها على طول التبر، كمية من التحف المشوّهة إلى محلات الحلوى بمراياها المزينة التي تنعكس عليها رموز الإرادة الحجرية كل هذا يتحد لكي يجعل من هذه المدينة التي أخذتم منها شرائعكم صورةً للفوضي. والزمن اللاحق على هذه الأحجار قد تسلى بأن أضفى على مجدها الوحشيّ الرنق البحر متوسطي. وفجأة، أمام هذه اللعبة الواضحة تماما لزمن غربيّ وفكّه، رأيت ذكرى روما تختلط بذكرى الإسكندرية. العظمة مع الفظاظة. وتماثيل الآلهة في شمس الصباح مع الجماهير العنيفة البيضاء بالميادين الفسيحة. ومع ذلك فبالقرب من الأقواس التي تكسوها الطحالب شبه السوداء، والأعمدة المنسية في وسط الميادين الصغيرة غير المرصوفة حيث ينام الناس من العامة في الظل، وبالقرب من مسرح الكوليزيه

ديزرت، حدث أنني سمعتُ أصداً نداءً الامبراطورية التي سمعها الكثيرون منكم هنا. وكما لو نَتَّ الشمسُ المحتجبة لبضع ثوانٍ البحرَ غيرَ المعتدل، فقد جمعتُ شتاتَ أفكارٍ المبعثرة.

كنتُ أتساءل، ما فائدة التعاطف أمام القوة إذا لم يكن المرء امبراطوراً؟ هذا الشيء المزوق كامبراطورية كبيرة، العايب كانهيارها. فهذه البشرية تعلم أن تتمسك حتى تتمكن. وباله من درس جنود غلاظ! قائم في إطار ماهو مقبول من كل الأجناس، متجسد في المثال الذي يسلمن هنا بعض الأشياء المتدنية والخشنة. وحتى يحني البشر هامتهم إلى هذا الحد الذي يثير سُخْطِي... فإن البطش هو الذي يفعل هذا، وسيداً، أعلى من هالاته، يُدانُ له بالطاعة. إنني أظن أن هناك بعض الضعف في وهج تيمورلنك أو الإسكندر، وهؤلاء البرابرة الآخرين. وإنني لأفضل عنه الظلال الامبراطورية، التي احترمتُ الواحدة بعد الأخرى على مرّ التاريخ فمؤدج الشجاعة المقتنة. فإذا كان عليّ أن أحمي هامتي أمام النظام، فإني أريد أن يكون هذا النظام من أجلي، لا أن أكون أنا من أجله.

عدتُ، مع الابتسامة الحزينة التي استدعتها هذه الأفكار، عبر الشوارع الضيقة التي فرش فيها باعة البطيخ بضاعتهم خارجاً. متفكراً في هذه الخاصية المبررة للقوة التي قضت لكم على الروح الرومانية كلها في تصدع سلطانها لمدة قرن وأعادت بناء المناظر على أنواع بليدة من التراص. وفكرت ثانية، في أنني أفهم جيداً ما تقوله هذه الشذرات: إن الذي يضحي يشارك في عظمة السبب الذي يضحي من أجله. ولكنني لستُ أرى هذا السبب

عظيماً إلا بقدر ما به من تضحية. إنه في ذاته بلا عبقرية.
والرجال الذين قادهم نحوه قد نُذروا للموت، الذي أخذوا منه أو
أعطوه. فهل للبربرية أن تكون أقل همجية من ذلك، لكي تكون
ذات جبروت؟

إن هذه الخرائب لا يجول في خاطري معها سوى نبيلها المهندس
والمشوش. وآهاً لسهول سمرقند الجذباء، التي يغمرها اسم
بحضوره، ومثلذنتان سوداوتان تنتصبان في سماء صافية تصرخان
بأشد المشاعر مأسوية!

وأسفاه! إنني أريد العثور هنا على القوة التي يحتاج إليها
جنسي على نحو مؤلم، وأمام أجمل صورها، لم أستطع أن أخفي
تقززي...



منه إليه

باريس.

السيد العزيز،

أود من جديد أن أحدثك عن روما. روما وأثينا، فمنذ تركتهما وهما تعيشان داخلي، تنطقان بحديث آخر غير هذا الذي سمعته من قبل، لتجبراني على الإنصات إليهما ثانية. ذلك أن ما أراه في أوروبا، هو أقرب ما يكون إلى إحياء الصور التي في ذاكرتي. وأنا لم أحدثك عن أثينا لأنني لم أجد فيها سوى الريبة. وما أردت استخلاصه قد تحدد بداخلي ؛ وهو ما توقعته. في المدينة الجديدة، كان سحر بعض شجيرات الفلفل هو الذي لطف بالكاد من الكدر الذي سببته لي النصبُ التذكارية الحديثة.

وفي المدينة الأثرية انتظرتُ أن تحل بي حالة من الصفاء الأعجمي، فالمرشد الذي أراني إياها رمزاً لشعب مكلل بالغار فوق حوائط قلعة، قد شوشني ؛ ولكن، من المحتمل ألا تكون هذه الفكرة قائمة بين الأفكار التي حصلتها خلال هذه الرحلة، إلا على صلة غامضة، لم تتعلق بهذه الأعمدة المهشمة وهذا الأفق الصارم، ولم تذكرني بمتحف الأكربول الصغير، الأليف والهادئ، الذي أراني فيه عسكري يوناني عجوز بعض الأحجار هي أفضل رمز عرفته اليوم للغرب. لقد كان يحبها. وكان يتحسسها كأحد هواة

جمع التحف المتواضعين. ولكنه كان يفضل عليها زيتونة الربة
التي باعني غُصناً منها مقابل ثمن زهيد.

وَبِمَ أَنَّهُ لَا يَوجَدُ جَمَالَ أَبَدِي، فَسَوْفَ يُوَارِي الزَّمَنُ قَرِيباً بَغِيرِ
شك، موكَبَ هذه الظلال التي كانت نقية وصارت فاتنة. ولكنه
صحيح كذلك أن صفوة عقولكم يأتون إلى هنا بحثاً عن صورة
نقية لأنفسهم. إنه مقدم النفوس الطيبة. المضيفة والمتلهفة لمعرفة
ذاتها، فأني اعتبار أروع من هذا يمكن عطاؤه للموتى؟

ومهما يكن من أمر فقر هذا التناسق، والحدود الإنسانية لهذا
النقاء، فمَنذُ بضع لحظات. وعند تذكري لأنني شاهدت، ضمن
الأشكال التي رأيتهَا، بالمتحف المتواضع بالنسبة للمتاحف التي
رأيتها غير العالم، رأس شاب بعينين مفتوحتين شدتني إليها
كأنها رمز للعبقرية الإغريقية، بإيعازها العميق؛ وهو قياس كل
شيء بمدار وحدة حياة إنسانية ما. لقد تساءلتُ، لماذا لم تحفروا
تحت هذا الوجه المجهول اسم أوديب؟ إن تاريخ أوديب هو تاريخ
المعركة مع أبي الهول بكل ما لديكم من قدرات. إن الوحش، سواء
كان تنيناً، أو أباً هول، أو ثوراً مُجَنَّحاً، فهو واحد من مرايا الشرق
؛ ولكنه أيضاً من هذا الجانب من الروح الذي حاول إخضاع
اليونان، وقد عاود الظهور عبر القرون، في كل مرة طلب فيها
البشر من الحياة أكثر مما يمكن أن يعطيهم الفكر. لقد مات في
طيبة، وأعيدت ولادته بمصر والسودان، وعلى تخوم الهند حيث
تغلب بدوره على هذا الأوديب المحزن: الإسكندر...

حياة واحدة لي، أنا الآسيوي. وكل العبقرية الإغريقية تكمن
في هذه الفكرة، وفي الحساسية القائمة عليها. وهنا يوجد فعلٌ

إيماني. إن الإغريقي يؤمن بتميز الإنسان في العالم، كما يؤمن المسيحي باتحاد الإنسان بالله، كما تؤمن نحن باتحاد الإنسان بالعالم، وكلُّ ينتظمُ انطلاقاً من هذا، من السمة الخاصة لألهته، تلك التي تهيمن عليها لالتجمل منها آلهة إنسانية، وإنما آلهة شخصية. إن أهمية الإنسان، والاكتمال الذي يتحسسه الإغريقي، نحن نعرفه مثله، ولكننا أدركنا العالم في مجموعته، وصرنا حساسين للقوى التي تكونه أكثر مما نحن حساسين للنشاطات الإنسانية ؛ وقد هيمنت فكرة النوع الإنساني في روحنا على فكرة الإنسان الفرد. لقد أدرك الإغريق الإنسان كفرد، ككينونة تولد وتموت ومسيرة الحياة هذه، من الميلاد إلى الموت، تكتسب أهميتها في فكرنا وحساسيتنا، من أقسامها: الشباب، والنضوج والشيخوخة، وهذه الأقسام التي لا وجود لها في فكر وحساسيتكم، صارت لفكرنا وحساسيتنا هي العناصر الأساسية للكون. وفي الوعي، وأكد أقول هذا الشعور بالوجود كجزء من الكون، الذي يسبق على نحو جبري المبدأ المجرد تماماً للإنسان، فإن هذه العناصر تُقيم مقام الوعي بالوجود وجوداً حياً، كلياً ومتميزاً، فوق كوكب أرضي يساعد على ذلك، ليس فيه من صور مشبعة بالعاطفة سوى صور البشر والبحر وهذه حساسية خاصة فضلاً عن أن تكون فكراً، يأتي من هذه المشاهد الطبيعية شبه الجرداء ليخضع كل شيء عندهم. إن الغرب قد ولد هنا، مع الوجه القاسي لمينرفا، بأسلحته، وندبات مستقبله المعنوي والحمية التي تتصاعد فينا تُعدّ، كما تقولون، لإضاعتنا. فهذه التي تحرقكم تصرخ. وإن من الحكمة تركها تستريح في سلام، هذه الثنائين العظيمة التي تنام تحت الأرض، هكذا يعلموننا سحرة بلادتي...

فبعد موت أبي الهول، كان على أوديب أن يحارب نفسه.

روما. عندما يعثر المرء على العلامات الهيلينية هنا، لا يجد مقبرةً امبراطورية، بقدر ما يجد المكان الفريد الذي يعكس أكبر حيز من الأسف الذي استكان بهدوء إلى القوة فإذا كان للفرد أن يتعالى هنا أو يسيطر، فإن التلال السبعة تشير له لكي ينحني فهل يمكن فهم حضارتكم وإيقاعها بغير الاستماع إلى الحوار بين الصوت الشره والصوت المتعجرف الصاعدين من هاتين الأرضين المليئتين بالرخام المهشم؟

لقد سرتني أن أرى في المدينة بعض الحراس الرسميين المرتدين للزي الروماني التقليدي القديم، الذين درّبوا كل ذكائهم على التصويب ببلمة قاطعة على حزمة من السيقان، وعددا من الكنائس التي جُلِبَت. أعمدتها الداخلية من المعابد الأثرية. ولقد سمعتُ بها صوتين مسيحيين: أحدهما يغني المجد لله، والآخر يسائل بغير أن يسمع وهذا الأخير لم يهتم أبداً بأن يحيط الإنسان وعباً بأيٍّ من هذه القوى، التي أكدت القطيعة بينه وبين العالم -من الجبروت إلى الشهوة- ؛ وبتردداته، وحسراته، في المعركة الداخلية التي تؤلف قوامَ حياته، بل نسب إليه كل الأهمية والقدرة الفائقة: ووَحَدَه بالله. إن الشرقيّ اللامسؤول يستمد قوته من التعالي على صراع لا يراه مصيرياً. والمسيحي لا يستطيع أبداً أن يتفصل ؛ فالله وهو مرتبطان الواحد بالآخر من الآن وإلى الأبد، وليس العالم سوى الهباء الذي يزوق صراعهما. وفي العذاب المثقف للإغريق، مع التلق الخالص الذي لأقوّه في محاولة أن يعطوا للحياة طابعاً إنسانياً. ينطوي عذابكم، وتخبُّطكم الأعشى، لأن

الله قد تَكشَّفَ لكم عبر الانفعالات العنيفة ويحكم هذه الانفعالات
تنطلقون نحوه. إن الله، الرؤوف... هو بالنسبة لكم حالة ؛ وهو
بالنسبة لنا إيقاع.



منه إليه
في إجابة على خطاب
غير ذي أهمية

باريس.

السيد العزيز،

لا، ليست بالعذابات وحدها، إنها بكل العواطف التي تسبغ
اعتقاداتنا الشعبية عليها الحياة. فهذه الأشكال الكدرة التي
تصعد، في المساء من حقن الأرز، أو تغني خلف الأسماك الخزفية
التي تزين أسقف المعابد؛ هذه التي تصطحبك، كالكلاب الشرسة
الوفية، على طول الطرق الناشعة، هي العواطف. تتولد فيك،
وتغادرك لتلحق، عبر العالم، بأخواتها المختلفات والمستعصيات
على العَدِّ. وكَم من هذه القرائن تتهاشم معاً فوق أرض الخريف
تُحدثُ الجلبة التي تعلو الأشجار الغارقة في الضباب، بينما
تُسقطُ قطرات الماء الثقيلة أوراقَ المانجو الملأى بالمطر واحدةً
فواحدةً.

إنني لا أستطيع الاندهاش من ضعف البشر من بني جنسك
إزاء عواطفهم. فطريقتهم في الرؤية، والتعامل مع الزمن، والفكرة
التي صنعوها لأنفسهم، كل هذا يدفعهم بعيداً عنها. إن الحب
يهمني أكثر من أي عاطفة أخرى. فقد وجدت فيه إنسانيتي،
وأحبُّ أكثر أن أفعل ذلك اليوم؛ وبما أن النفور الذي أكنُّه لأوروبا
لا يدافع عني دوماً ضدها فقد أصبحت متطلعاً أنا الآخر، لأن

أقتفي أثر صورتي، التي كنت قد رفضتها. فكيف أجد نفسي
بغير أن أنظر إليك؟ وحين أراك تضيق بعض الشيء في الحب
يغمرنني الأسف لعدم قدرتي على اللحاق بك ؛ فمن أجل أن يضيق
المرء لا بد له من الإيمان بذاته.

يخيل لي أنكم تعطون لهذا الذي لا يعدو أن يكون اتفاقاً
شبه عام المسمى بالواقع أهمية مفرطة، إن العالم قد خُلِقَ بمقتضى
هذا الاتفاق، ولذا فأنتم تتصلحون معه لأن إنكاره يتطلب ممن
يحاول ذلك شجاعة فائقة، تكلفكم الكثير والعاطفة تبدو في
نظامكم الاجتماعي، كما لو أنها صدعٌ مستقيم فأياً ما كان
جنسنا، نحن نعلم كبشر، أننا نعيش في عوالم معدّة سلفاً، لكن
نوعاً من السرور الوحشي، يغزونا جميعاً عند نداء حاجتنا
الأساسية يُرنا ما بها من استبداد. والإنسان العاطفي في خلافٍ
مع العالم الذي أدركه، كما لو أن هذا العالم المفاجيء له والذي
توقعه لن تغير فيه العاطفة شيئاً والإنسان الذي يرغب في الحب،
يرغب في الهرب، وهذا نادر ؛ لكن المرأة أو الرجل الذي يرغب في
أن يكون هو موضوعاً للحب، ويرغب في أن يضيق كيانه آخر
فيه، يبدو لي أن انصياعه لهذا مطيع لضرورة قاهرة للغاية بما
يجعلني أصل إلى القناعة الآتية:

إن ما يتركز في الإنسان الأوربي، مهيمناً على التوجهات
العظمى لحياته، هو عبث في جوهره فهل لا تعتقد بهذا؟

لقد توقفتُ بعض الوقت عن الكتابة. وهذا السؤال يلح عليّ.
لأي شيء إذن تريدون التماهي فيما تسمونه روح المرأة؟ فيم أنهن
كن مسيحيات قد ضحين بعقيدتهن ؛ وصرن بعد ذلك يضحين

برأيهن، وأصبحن اليوم يعانين أكثر من هذه الصراعات، بم أنه المستحيل لهن أن يضحين بحساسيتهن ؛ ولو أن هذه الحساسية فيما يبدو ضعيفة في أوربا...

إنني أعتقد بأن العواطف التي تخبرونها لا تنظم عالمكم بما يكفي لحسابها حيث أنها لم تفتتكم. فهي لا تؤثر على القيم، ولكن على كثافة وجود الأشياء. ولا توجد وصفة علاجية لذلك سوى في مملكة الروح، وهنا بالضبط تقع مأساتكم. فليس يوجد في عواطفكم، شيء كالحب، يجعلكم تريتون على الحيوان قبيل إيقاظه. وعندما أقسر نفسي على أن أفصل بين عذابكم وبين موضوع الغزو، يبدو لي أحيانا أنني أشارك في بحث عن العذاب الخالص. ولا يغيب عن ذهني أن عقيدتكم علمتكم أن تبحثوا في أنفسكم عن العالم القائم على الوعي المعظم لفوضاها الأساسية...

كل هذا للأسف ليس سوى محاولات بحث. ولقد تذكرت عن الصين بعض الاختلافات، وبغير محابة كبيرة، هذا فحواها مع بعض التأملات:

إن المرأة موضوعٌ جدير بالاهتمام، حساس، كالعمل الفني. جميل، ومقدّر عليه بعض الواجبات. كأن يكون عليها أن تكون مخصصة ووفية، إن كان عليها أن تكون زوجة، جميلة إن كان عليها أن تكون محظية. خبرة إن كان عليها أن تكون عاهرة. أما أن تكون شهوانية، فأمر لم يعد مرغوباً ؛ فيكفي أن تكون حاذقة في خدمة زوجها أو أن تبيع لحبيبها التسليات المتنوعة اللذة. إن فكرتنا عنها تمنعنا من أن نضيف عليها شخصية خاصة. فكيف يمكن لشباب أن يحب فتاة لم يرها وخطبها له أبواه في سن

العاشرة؟ لذا فإن العاطفة التي يمكن لامرأة أن تلهمها لرجل، يعبر عنها كتابنا دائما باعتبارها خارج الزواج، بما أنها ناتجة عن عملية سحرية. وسواء بالنسبة لمن يكابد من الإذعان لها أو لمن يناضلها فهي دائما مسالمة. وهي أشبه ما تكون بالمرض القاتل، حافية، ولا أمل فيها. فلا التملك، ولا يقين المعاشرة بقادرين على إضعافها؛ فليس في مقدور البشر أن يتفادوا أقدار الجروح الأبدية...

وأدوار المحظية والعاهرة تتطلب أحيانا ذكاء، وتتطلب دائما المهارة والعناية؛ لكن أية سمة فردية هنا تعد مهارة خاصة. إن بيوت اللهو المترفة التي نراها في أوروبا تدهشنا دائما: فالقليل من الأماكن التي احتفظت بها أوروبا البربرية تجعلنا من ناحيتها حساسين لهذه النقطة: فبين كل الأفكار التي يحملها الإنسان هل توجد فكرة قادرة على فضح حساسيته السرية غير فكرة المتعة؟ إنني لا أجهل أنه سيكون شيئا يدعو للسخرية محاكمة أوروبا على هذه الأشياء؛ ومع ذلك فإن الاهتمام بالنساء والرغبة فيهن، فقط لكونهن جميلات، دليل صارخ على الفظاظة؛ فليس بالصين عاهرة على درجة من القيمة ليست متعلمة وقادرة على أن تزين اللذات التي تمنحها للرجل بتلك التي يتطلبها العقل. إنها تقرأ وتقرأ دائما؛ لكن هناك الجيد والردىء من الكتب، كما أن هناك الجميل والحقير من الزخرفات. ولابد للعاهرة أن تكون متعلمة لكي يكون لها قيمة، وحاذقة لكي تحتفظ بهذه القيمة. وليس فيهن من ليست لها سمة خاصة إلى جانب هذه الثقافة وهذا الحذق، فهن تتشابهن من حيث الأنواع مع العاملين بالفن. إن الفضائل التي ننشدها في النساء هي نفسها التي تسرنا لدى رجل؛ والعاشرات اللاتي يشتد عليهن الطلب هن اللاتي تنحنين دائما أمام القلمان الصغار واللاتي

تم إعدادهن عبر اثنتي عشر أو خمسة عشر عاما من الدراسة...

إن من البديهي أن تَمَسَّ امرأة ما شغافَ نفسك لأنها متفردة. فكيف باستطاعتك تمييزُ ما إذا كنت تميل إلى أن تحب هذه المرأة وليس امرأة أخرى؟ إن هذا ليس بسبب الجمال: فالنساء القبيحات يجدن أيضاً مَنْ يحبهن. (فجمال المرأة، فضلا عن ذلك، ربما كان فرصة للزهو، ولكنه أبدا لن يكون وعداً بمتعة حسية) فالشيء الوحيد الذي يُمثل وعداً حقيقياً هو تعابير الوجه، والصوت، والجسد. فهي تحقق كل الإغراءات المباشرة، وحتى هذه التي ستحوها الأفعال بعد ذلك، والنفس المعروفة لا تسمح لوجه بأن ينطق بأكثر من وعود منسية وهي تؤثر في الإنسان عندما تعرض عليه المشاعر التي هو بحاجة إليها أو يرغب فيها ؛ من اللذة إلى المكابدة، فيُستثار لها كما تُستثار جميعا تقريبا، وخلاف ذلك لا يكون إلا تعبيراً عن حالاتٍ من الضعف نادرة وخفية، يكون فعلها فينا أشدَّ غوراً.

إن الفتيات الشابات والنسوة الشابات الصينيات لا يحاولن قط أن يتميزن بتعبير خاص. فتصفيق شعرهن، وخضابهن، وحَقْرُ أعينهن أشياء مشتركة بينهن، بل إن غيابهن ربما كان أكثر من حضورهن. فقط العاهرات من المستوى الرفيع، كالجيشا في اليابان، يظهرن أحيانا. كذلك فهن بطلات كل حكاياتنا العاطفية. ومنذ أن تم قبول النساء بالجامعات ورفضهن للتقاليد، فإن طلابنا أبدوا اهتماماً فائقاً بهذا الشعور الذي أسميته الحب. وهم يرون بأسف أنكم تخلطون بينه وبين ما يتعلق به من رغبات جنسية، مما يجعل ما تقولونه في هذا الشأن يبدو لهم طافحاً بالجهل

والسذاجة، ذلك لأنهم يجهلون التأثيرات الواضحة التي عرفتم كيف تستخلصونها من الخيال.

إن الصينيين الشباب الذين يقرأون كتبكم تصيبهم الدهشة أولاً للاهتمام الذي تظهرونه لفهم أحاسيس النساء. فضلاً عن أن جهداً كهذا يظل في رأيهم، أهلاً للازدراء، فهو بالضرورة جهد يُقضي إلى هباء. فالرجل والمرأة ينحدران من نوعين مختلفين. كيف تفكر أنت في المؤلف الذي يصف لك أحاسيس طائر؟ إنه يقدم لك أحاسيسه هو مشوهة. وهذا هو ما نفكر به بالنسبة للكاتب الذي يحدثنا عن أحاسيس المرأة. رغم ذلك، ومن هذه المحاولة تأتي قوة الأوربيين. يبدو أنكم تأخذون بيد المرأة لتضعونها على أكتافكم؛ فهي تهكم لأنها تأسركم، ولكنكم أنتم الذين تمكنونها من أسركم. وفي إطار رغبتكم في أن تفهموها، فإنكم تحققون هويتكم فيها.

وتحضرني بعض أقوال لصديقك (ج. أ) وكان عائداً من سوريا. وتحدثنا عن النساء، حيث أنني منذ عدة أيام، أفكر فيهن باستمرار قال لي «لقد فاجأتني الاستشارات التي أيقظنها داخلي، في أول الأقطار الإسلامية التي زرتها. المحجبات اللاتي رأيتهن يسرن متمهلات في الشارع، يتبعهن خدمنهن؛ كان ظلهن يتقدمهن بطيئاً على سور عالٍ شرع في السماء خطأً منحنيًا من الشرفات الحمراء. ودفعني الفضول لتحليل الاضطراب الحسي الذي سببته داخلي الطريقة التي وضعن بها خُمرهن على وجوههن. وأعتقد أنني تمكنت من تلطيف جدة الأحاسيس التي أسبغتها عليّ كل واحدةٍ منهن. لكن هذه الأحاسيس التي خبرتها، قد

تحوّرت: فهي لم تُعدّ الأحاسيس التي بعثتها، ولكنها الأحاسيس التي تبعثها امرأة عرفت أحاسيس الرجال، وهي أحاسيس رجل تحول دفعةً واحدة لامرأة...» وإني لأجد بلا توقف هذا التناقض بين الموضوع والشكل الذي يسك بحساسيتكم التي لطف من حدّتها هو بأن أعاد رسم أشكال العالم وولّى هارباً إلى الفكر. إن الحب الغربي، يستمد قوته وتعقيده، من الضرورة التي تتمثلونها في أنفسكم، طوعية أو غير ذلك، للمرأة التي تحبونها، متصلة مع الاتحاد المتضمن فيها بين العاطفة الرقيقة والمتعة الجنسية. وإن المرء لا يتخذ أبداً نموذجاً للحياة يتواطأ عليه بغير صراع.

إنني أنتظر إجابتك بتطلع كبير، وكلّني أسف لأنه لا يوجد في اللغة الفرنسية كلمة تعبر عن هذه الفكرة بغير السقوط قليلاً في معنى التذلل.



من أ. د. إلى لينغ

صديقي العزيز،

إن الأهمية التي كرسنا أنفسنا لنعطيتها لواقع (نا) ليست بالقطع سوى إحدى الوسائل التي يقوم بها العقل ليؤمن الدفاع عن نفسه. بم أن التأكيدات على هذا تؤيدنا بأكثر مما تجعلنا غير واضحين. فالبشر، لم يقنعوا أبدا في بحثهم عن حدود قدراتهم، لعدة آلاف من السنين سوى بتجريب هذا البحث، لقد وجدوه في العالم، وفي الله. وحاول الانتباه لأقوال أولئك الذين رأيتهم يبحثون داخل أنفسهم.

بالقبول بمبدأ اللاوعي وتعليق أهمية فائقة عليه، حرمت أوربا نفسها من أفضل أسلحتها. فالعبث، العبث الباطل المتعلق بنا تعلق الثعبان بشجرة الخير والشر، لم يختف كلية أبدا، ونحن نراه يُعدُّ ألعابه الأكثر إغواءً بالمشاركة المخلصة لإرادتنا. فبقدرها نحاكم غيرنا باعتمادية على أفعاله الأتانية، لا نحاكم أنفسنا ؛ والعالم الواقعي، الخاضع للتحكم والإحصاء، ليس سوى هذا الذي يتحرك فيه البشر الآخرون. إن الهواجس ملازمة لعالمنا عبر سلسلة انتصاراته. ويضع لحظات من الوحدة والملل كافية لجعلنا نقع، في أنفسنا، على الذكرى السقيمة للأسلحة اللامعة؛ فالمجد الفائق

لمآسي التاريخ والفن، يكمن في التلاعب اليومي على نحو غائر بالأعداد التي لا تُحصَى من حالات الوعي المعتم. وما أن أروح الغربية هنا؛ في تخيلات الحلم هذه... فإن هذه الألعاب التي يبدو معها العبث فظيعة إذا لم يكن مشتركاً، تترك في أنفسنا آثاراً لها تقريباً قوةُ الذكريات. إن المقل يُعطي فكرة الأمة: لكن الذي يُحدثُ وحدتها الشعورية هو الهاجس المشترك. فإخوتنا هم هؤلاء الذين عاشوا طفولتهم على إيقاع أشعار الفروسية والأساطير التي هيمنت على طفولتنا. لقد أحسنا جميعاً برودة وغمام صباح أوسترلitz. وانفعال ذلك المساء الطويل المؤلم حيث حمل البعض، للمرة الأولى، أرغفةً السرخس في فرساي المثقلة بالصمت. وصور كهذه لا بد لها من بشرٍ بيضٍ لكي تعطيهم ذاتاً قومية.

إن القراءة، والعروض، عند الناس الذين بلا ثقافة، هي مصادر الحيوات المتخيلة. ولا يوجد شيء أقل من أن يحظى بالاهتمام سوى الرغبة في المعرفة. والغرب، الذي يجهل الآفيون، عرف الصحافة. وصراع الطموحات المنتصرة أو المقهورة يوماً ما: هو صحيفة. فأني عالم لم يواجه هذا الصراع ولم يُزغ عينيه خلف حداثتها! هذا هو ما يجعل تحقيقات البشر من جنسنا تحقيقات مسورة. لاشيء يدوي فيها بالصوت الذي ننتظر قدومه. إنك تظن، يا صديقي العزيز، بأنه لا يوجد لدينا الإنسان، الذي لم تقهره أوربا. وذلك ضرب من الاستسهال...

هل أنت ممن يتذوق الهزل؟ اذهب إلى السينما، إن عَرْضها المحاط بالصمت وإيقاعها السريع لقاداران بشكل خاص على التأثير في خيالنا. انظر إلى الناس الخارجين بعد انتهاء العرض:

سوف تجد أفعالهم متأثرة بأفعال الشخصيات التي شاهدوها. لاحظ كيف يعبرون الشوارع بعد ذلك بطريقة بطولية! ففي روح الأوربيين، تقبع، يا صديقي العزيز، أسطوانات فارغة. وبعض الحركات التي تؤثر في حساسيتنا على نحو نشط، تنحفر فيها. وهي التي تتحفز بها رغبتنا أو خواؤنا ويبدأ الحيوان نعيقه المسرحي. فنأدرأ ما تعطينا ثقافتنا أو تزين لنا متعة أن نكون متلبسين بأشباح عشيقاتنا الأثيرات...

إليك هذا العرض الفريد في بابه؟ للعتة الذي يتأمل نفسه فهالة القوة التي تزين الشخصيات العظيمة تؤثر فينا بأكثر مما تؤثر أعمالهم - التي لا تعدو أن تكون إعداداً لهم لبلوغ حالتهم - ونحن نتخلّى عنهم بمجرد أي تدخل غير ذي موضوع من الحياة الواقعية يجعلهم على خلاف معها. ففيم تهم القديسة هيلانة، أو ما إذا كان جان سوريل قد مات شنتاً!

إن الشاب الفرنسي الذي لديه ساعة فراغ جعل نابليون يتمثل تصرفات الامبراطور التي تحركت في نفسه، وهو الامبراطور. فسيّرُ الحيوانات الشهيرة توجهه، وتحني للحظة خياله المطيع الذي يهيمن عليها بدوره دفعة واحدة. وفي لحظات يتأسس على هذا الجنون وضوح كامل: فالجنرال المتخيل يعد الخطط المنطقية ويدفع بالصعاب المعترضة مستعينا بالمناهج المحددة. إن الروايات الغريبة تريك بوضوح شديد، فضلاً عن ذلك، أن ما يمكن أن يكون هاجساً يستمد من الذكاء الوسائل للقبول بجنونه.

نحن لا نرسم صورة وهمية لأنفسنا، ولكن صوراً عديدة، كثير منها ليس سوى بالكاد تخطيطات أولية، يرفضها العقل

بانزعاج حتى عندما نشارك في تحديد ملامحها. إن كل كتاب، وكل محادثة قد تصدر عنا تتجدد مع كل عاطفة جديدة، فهي تتبدل مع أحدث متعنا ومع آخر أوجاعنا. ومع هذا فإنها من القوة بكان حيث تُخلفُ فينا الذكريات الخفية التي تنمو حتى تشكل أحد أهم عناصر حياتنا: فالمعرفة التي لدينا من أنفسنا ؛ محتجة ومتعارضة مع كل منطق، كل سعي وراءها، حتى ولو كان سعي العقل نفسه، ما إن يسك بها حتى تختفي فلا شيء محدد، حتى ذلك الذي يسمح لنا نحن بأن نتحدد. إنه نوع من القوة المستترة...

إن الأمر يبدو كما لو أننا فقط قد أخطأنا الفرصة لننجز في العالم الواقعي أحلامنا، ونحن نحتفظ بالانطباعات المبهمة، لا لكي ننجزها، ولكن لتصور أننا كنا قادرين على فعل ذلك، فنحن نحس بتلك المقدرة في أنفسنا بنفس الطريقة التي يشعر بها الرياضي، الذي لا يفكر في قوته، لأنه يعرفها. وكالممثلين البائسين الذين لا يريدون التخلي عن أدوار البطولة. فنحن بالنسبة لأنفسنا كائنات راقدة داخلنا، اختلطت مع الإمكانات الساذجة لأفعالنا، وأحلامنا.

وبالنسبة لهذه المعرفة، المتزودة عبر الوعود والآمال في حياة إنسانية، بكل غنى الهذيان، فإن كينونة تأبى الانحناء: هي ذات إنسانية. وهذه الذات تعلو على أي مناقشة. إذا لم تكن أبدا موضع اعتبار، فذلك لأن التأملات التي كانت الأنا موضوعها في الغرب، ومنها تأملي، قد ارتبطت قبل كل شيء بديمومتها. إن الجميع يرتضون ضمنا بأنها، في اللحظة الراهنة، هي الشيء.

المتميز بالعالم. أما الصينيين الذين تحدث معهم في هذا الأمر فهم لا يقبلون أبدا بهذا الاختلاف ؛ وعليّ أن أعترف أنا أيضا بأنني لست متأثرا به. إنني ببعض القوة التي أريد بها الحصول على معرفتي بنفسي، أشعر أنني خاضع لسلسلة من الأحاسيس المضطربة التي لا أستطيع السيطرة عليها، والتي لا تعتمد إلا على خيالي وردود الأفعال التي يستدعيها. وبما أن الهاجس، الذي هو أيضا فعل، مدعوم بخيال غير فاعل يتكون من عمليات تعويضية لا إرادية. فإن لعبة العشق هنا: أن يكون الواحد نفسه والآخر، أن يعيش أحاسيسه الخاصة، وأن يتخيل أحاسيس الشريك. وفي السادية والمازوكية، حتى المشاعر التي تتطلب استعراضا، فإن البشر خاضعون لهذا الازدواج، الذي هو آخر وجه للقوى الكهلة للقدر المحتوم. إنها خاصية غريبة، خاصية افتراض الأحاسيس، واختبارها على هذا النحو، والأغرب من ذلك هو التمكن من لعبة كهذه. ولأن العقل يتواجد هنا: فإذا كنا نتفاعل، وقد تلبستنا هذه المشاعر، فهذا بتوجيه منه، فهي مثل الكشف، من خصائصه سوء التقدير، ومن خصائصه أيضا دفاعنا الجمعي، وفكرة الأنا وإيعاز الاحتمالات.

هذا الدفاع ضد الإلحاح المستمر للعالم هو الصفة نفسها للعبقرية الأوربية، التي تعبر عن نفسها من خلال القناع الهيليني أو القناع المسيحي. فعندما يسمي لاهوتي كاثوليكي إبليس «أمير العالم» يُخَيَّلُ لي أنني أسمع صوت التماثيل الأثرية يصعد من البرونز الأسود. صفة، كما لو أنها لقبيلة في أراضينا المتشامخة، يصرخ هذا الصوت المتناوب للتعظيم وللأس، بإيمانها بحدود قدرات الإنسان، في ضرورتها كسبب لوجودها. صفة أيضا لجنس خاضع لبرهان الفعل، وموعد لذلك بأشد الأقدار دموية.

من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

لاشيء يمكنه، أفضل من هواجسنا أن يلقي الضوء على الاختلاف الذي يفصل بين حساسياتنا. فإذا نحن حلمنا، فبالكاد لكي نطلب من أحلامنا الحكمة التي لا تعطيها لنا الحياة. الحكمة وليس المجد. «انفعالات الحلم» كتبت لي، وأجيبك: الهدوء في الحلم.

وبما أن الصيني الذي يحلم يصير حكيماً. فإن أحلامه ليست مسكونة أبداً بالصور. فهو لا يرى مدناً مغزوة، ولا مجداً، ولا قوة؛ وإنما يحلم بإمكانية ظهور كل شيء بشكل فيه الكمال، فلا يتعلق حلمه بما هو يومي. وإذا كانت نفسه فظة إلى حد ما فهو يحلم ببعض الاحترام.

لاشيء يجعله ينحني أمام الفعل. إنه كذلك حتى في الحلم. فشعوره بأنه محترم. ليس أبداً في تخيله بأنه في قاعة تغص بالرووس المنحنية أمامه. بل هو في معرفة الأشياء الخاصة التي يضيفها له الاحترام الذي يستلهمه. وقد يبدو لكم من الغرائب التي لا تستطيعون تصورها، أن الصيني، إذا جاز لي القول، يحلم بغير صور. وهذا هو الذي يجعله مرتبطاً بالقيمة وليس

بالشخصية، بالحكمة وليس بالامبراطور. لذا فإن فكرة العالم الذي لن يذهب إلى تخيله، تعبر بالنسبة له عن حقيقة العالم.

إن لكم ردحاً من الدهر تعكفون فيه على إدراك وجودكم. وبعناية، عَنَوْتُمْ، وَصَنَفْتُمْ، وَحَدَّدْتُمْ الشخصيات التي ظهرت أمامكم، وكذا شخصيتكم. ومسلحين بأحجار الصيد الخفيفة، وبغير عصي، رُحْتُمْ -مع قصر النظر والحماسة- تبحثون عن اختلافكم عن الآخرين. إن هذه العناية التي بدلها فنانو القرن السادس عشر، في تأطير صورهم، وهي شيء أتذوقه، ملمح من ملامح روحكم. وأحياناً وأنا وحدي، أتصفح كتاباً من الكتب التي تقدرونها بعض التقدير، متناسياً مع الشمس التي عَزَّ طَلَبُهَا ذلك القلق الذي صار ملازماً لي، أجدني أمتنع بتسليلات لطيفة من محاولتكم طرادَ الفرد. ومن الجهود التي تبذلونها للإمساك فيه بشيء محدد. ذلك لأنكم في محاولتكم العثور على أنفسكم، تفعلون ذلك على طريقة هؤلاء السحرة، الذين يجدون في أعقاب ندائهم على العفريت، أن الغرفة قد احتلَّتْ بأعدادٍ لا تُحصى من الوجوه ذات القرون، فيُعْمَى عليهم، ويستيقظون بعد ذلك تحت أكوام الكتب. يعانون من الآلام العظيمة في الرأس. ليس لأن الكتب قد أصابتهم بجروح أثناء سقوطها عليهم. ولكن لتذكرهم بأن العقاريت قد تشاجرت وتضاربت أثناء تزاوجها، لأن كل واحد منها أراد أن يكون هو المعني بالنداء ؛ وهو ما يغري هؤلاء السحرة البارعين بمواجهة الصعاب من جديد.

ونحن قد اجتهدنا على مر التاريخ ألا نقع تحت إغواء أو أسر هذا الوهم في أنفسنا. وإني أراك، ياسيدي تفكر في البوذية،

حيث أن الغرب يُسبغ على هذه الحالة أهمية غير قابلة للتفسير. وهنا لا يجب التفكير. فمعلمو البوذية لديهم أحيانا حالة من الصفاء مليئة بالتنوع والذكاء أثرت في أكثر مما أثرت في حالتكم، بما يجعلني أشعر نحوهم بكثير من الحماس المخلص. لكنهم يسقطون في نفس الدوائر التي تسقطون فيها. فالبحث والهروب كلاهما بلا إحساس. فأني إنسان يترك نفسه ليقادَ بواسطة العقل لن يحيا إلا له وعبره. ولا توجد زينة مشؤومة أكثر من هذه. إن ما نريده نحن هو ألا نحصل على الوعي بأنفسنا بوصفنا أفرادا. إن عمل العقل عندنا هو في التجريب على نحو مضيء لخصوصيتنا التفتتية والاستشفاف عبر هذه الحساسية للخصوصية المماثلة للكون، ليس على الطريقة التي يعيد بها حكماؤكم بناء الحيوانات المنقرضة انطلاقاً من بعض العظام، فنحن أقرب لأن نتصور هذه الحيوانات حية ترعى في مشاهد طبيعية نجهلها مُقلّمة بتعريشات النبتات العملاقة. ذلك لأن الجمال الفائق لحضارة طبيعية، هو رهافة لفطرية الأنا.

إن مبدأ العالم هذا والذي لا تعثرون عليه في أنفسكم، قد استبدلتموه بأبنية. أنتم تريدون عالماً ملتحمًا. ويخلقكم له، تستخلصون منه حساسية خاصة، مؤطرة بدقة بالغة. من ذا الذي قال إنها تدين لعقلكم؟ إن حساسيتنا نحن تتجاوزنا في كل أجزائها. والحالة التي تميز بشكل أساسي بعض حكمائنا عن حكماء الشعوب الأخرى، لا يعوزها الأخلاق أو الجمال حيث إن حساسيتهم، التي لا تعطف إلا على اكتمالها الخاص، تحقق جمالية بغير احتمالية للصراع، أما عن الأخلاق، فمن العبث فصلها عن الفنون الجميلة.

وصحيح أن بعض الغربيين قد تَلَّهوا، في كتب، بالانتقاص من قيمة فكرنا لصالح فكرهم. لكن الذين حاولوا حقا معرفة فكرنا، هؤلاء المزدربين للرموز ليجتهدوا على النحو الذي تفعله، الذين توجهوا إلينا، وفهموا سريعا أن عقلا بشريا يمكنه أن يعمل لغايات متنوعة، وأن اكتشاف العالم أمر مرغوب أكثر من غزو نظامه. قد تباعدت الأواصر شيئا فشيئا بينهم وبين نصائح التلال التوسكانية والحدائق الفرنسية.

لقد تنزهت، أنا أيضا في حدائقكم التي لا تضاهى والتي تختلط فيها التماثيل مع غروب الشمس بظلالها العظيمة الملكية أو الألوهية. إن أيديها المفتوحة تتراءى لك كأنها ترفع قربانا ثقيلًا من الذكريات والمجد. ولقد رغب قلبكم أن يتميز في وحدة هذه الظلال التي تتمدد بهدوء كشريرة عملت لدهر طويل. أهأ أي فرع سيكون جديرا بأصله، ذلك الذي يبحث عن فكره الغابر، لا يعرف بعد سوى أن يبكي موتاه الكفار؟ وعلى الرغم من جبروته الواضح، فإن الغروب الأوربي محزن وفارغ، فارغ كنفس الغازي. ففي كل التصرفات الشديدة المأساوية للبشر، لم يظهر لي من بينها على الإطلاق، ما أشد مأساوية وأشد عبثا من ذلك الذي تسألون به ظلال أمجادكم. إن جنسا منذورا للقوة، هو جنس يائس...

ما أشد حاجتي إليك، يالذات الجسد المقهور في الليل المتعب، يافكرًا غير بشري يتصاعد فوق وهج الحريق الهائل للعالم، ويا آسيا.

منه إليه

باريس.

السيد العزيز،

يوجد فينا معنى لا يبدو حتى أنك خمنت إمكانية وجوده: هو معنى الحيوانات الغريبة، الحيوانات المختلفة على نحو جوهري عن حيواننا. وهذا المعنى يتخلل فننا الشعبي وفنوننا التشكيلية إلى الحد الذي يتعسر فيه على أي كائن أن يفهم هذه الفنون بغير استنادٍ إلى هذا المعنى. إن العناية التي يراقب بها رسامونا ما يرغبون في رسمه لا تستطيع تفسير الأشكال التي أظهروها ؛ بما أننا نجد في الصور الرمزية الغزال أو الحصان على سبيل المثال، نفس الإحساس الذي يؤثر فينا في اللوحات التي تُقدَّم فيها هذه الحيوانات في حالة حركة والتي تبدو كما لو أنها استمدت ما بها من قدرة على الإمتاع من تأملٍ حاذق.

إن الحيوانات أو الموضوعات التي تُقدَّمُها لك هذه الأعمال تُعدُّ على نحوٍ ممتع باستلهاهم من الحكايات. وإن كنتَ تجدني الآن كدرا، فإن ذلك بسبب المرض الغريب الذي سببه عندكم تطور في هذه الروح، التي حدثتكَ عنها. فأنتم تبحثون بغير ابتسام، عن ميزات وعيوب الحيوانات ؛ فقد أغمظتم أحاسيس الكلب، وتشكَّيتم من نفاق القط، وفيما مضى، حدث أن لمحاكم، في

أوروبا، أرغمت على إخضاع الحيوانات للإدانة. لقد كان هذا العرفُ حسناً، ولن أقول كم أنا أسف لإقلاصكم عنه. فقد وجدتُ فيه رمزا، وقَدَرْتُ فيه ثانيةً، معنى النظام الذي ميزكم بين الأجناس ؛ وقد سَرَى ذلك عني كثيرا.

أنتم تعرفون حكاية الجمجمة، هذه الحكاية عندما يُرينا مؤلفها كيف أن الجمجمة الأدمية مهملة على حافة طريق عبر متابعته للعابر الذي دنسها، فهو لا يفعل سوى ما يفعله قاص غربي. لكنه عندما يعرض لنا، في الضوء الباهر للمقر الثلجي، هذه الكرة التي تتدحرج، وتقفز، وتسقط وترتد، ولا تني تزعج العابر المرتعب، نشعر بأنه يفترض بأن لهذه الرأس حياة خاصة، متشكلة بشكلها الغريب عن الأشياء الإنسانية. وهنا تبدأ عوالم الخيال.

إن الحياة التي تجسدت في صورنا والتي جعلتك تعتقد أن فننا أحبّ تصوير الفرد. جاءت، على العكس من إهمال الخواص الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف الفردية. إن مبدأ النوع، الذي هو بالنسبة لكم مبدأ تجريدي للغاية، وسيلة للتصنيف؛ وطريقة للتعرف. وهذا المبدأ عندنا مرتبط بالحساسية، ففنون آسيا فقط هي التي ابتدعت الكاريكاتير للحيوانات .. وعندما أقارن فننا بفنكم، تدو لي حساسيتكم مبعثرة، وحساسيتنا مُنظمة تقريباً على النحو الذي تنتظم به أفكاركم. هل لك أن تتصور، وأنت المسيحي، أن يكون هناك إنسان لديه حساسية منظمة؟

عندما أقول: القط، فإن الذي يهيمن على عقلي في تلك

اللحظة ليس صورة القط ؛ وإنما بعض الحركات اللينة والصامتة التي تُميزُ القط. إنكم تميزون نوعاً من غيره من الأنواع عبر خطه التشريحي. وتميز كهذا لا يستند إلا على الموت. (يقال أن رسامكم فيما مضى، كانوا يدرسون على الجثث تصميمات وتوزيعات الجسم الإنساني).

إن مبدأ النوع يتجسد في الضرورة التي تُوحّد بين الأشكال التي تتخذها الحياة في الكائنات التي تحتويها: أي ضرورة الحركات المعينة. وهذا هو السبب الذي يجعل هذه الضرورة لا تستطيع، بأكثر مما يستطيع الأسلوب، أن تتجسد في صورة ؛ فإذا أمكن للأسلوب أن يصل لهذه الغاية، فهو بسبب من إيعازها له. وهذا الإيعاز هو أعظم وسائل الفن، وتعبيره هو رمز النوع الحي، يمثل ما أن الخط التشريحي هو رمز للنوع الميت. إن فهم عالم الحيات المتوالية هو الفهم الذي يسبق كل فهم ؛ ومن خلال ذلك تكتشف العالم ألعابُ الفنان. وهذا الموضوع يطبع على نحوٍ عميق التعارضَ بين كُشوفنا وكُشوفكم: فمن تماثلات بديهية تذهبون أنتم إلى تماثلات أشدَّ غموضاً، ونحن نذهب إلى تنوعات غير قابلة للتوافق.

كل بعد الظهر قَضَيْتُهُ في مشاهدة لوحات اللوفر. وفي معاناة الطريقة الخرقاء التي جَمَعَتْهَا معاً، بحيث قُضِلَتْ النظرُ لما هو خارج الشبابيك! هذا الربيع الخفيف الذي يمرُّ على باريس يبهجُني. إن ضفاف السين تتشابه مع الصور المطبوعة على الحجر لرساميكم الرومانتيكيين؛ فهي مجيدة، ولطيفة، وبورجوازية في آنٍ معاً ؛ فالقصورُ هنا محاطةٌ بـتجار العصافير. ولم تجلب لي

متاحفكم أية متعة. فالفنانون الكبار مسجونون فيها ؛ وهم يتجادلون معا. وهذا ليس دورهم، لا دورنا أن نسمع جدالهم. إنني دائماً مُحَبِّط من الأماكن التي تفضلون فيها إشباع مَلَكَةِ الحُكْم على المتعة المرفهة الناتجة عن الفهم.

المتحف يعلم، للأسف! ما ينتظره الأجانب من الجمال. إنه يُعَرِّض على المقارنة، ويُقْضِي، قبل كل شيء إلى إحساسٍ باختلاف ما يقدمه، مع أي عمل جديد. إنه يسيطر على الحساسية التي يعرضها، ولقد حَدَسْتُ، ببعض المارة، أن أحدَ أطفالِي قد تقوَّدهُ الصدف إلى معاناة مشاعر ماثلة فيه. فالانفعالات، والمقابلات غير المتوقعة للألوان، والأحلام الجمالية التي حلم بها أسلافي في رسوماتنا تصطحبنا حتى الموت مثل التخييلات التي تعطيها اللعب للأطفال ؛ وهي لا تتميز عنها سوى بالنوعية... فكم من عصور الحكمة أوصتنا بأن نجعل من خيائنا خادماً حاضراً وجديداً دائماً لحساسيتنا! وعلى حين تنتقل التعاسة التي لا تَكِلُ للغرب، والمتنصرة انتصار التحف المعروضة، من صالةٍ لأخرى، يصعدُ القرنُ الشاب لنهر السين من المجرى سحاباتٍ من ضباب الخُور الملونة... وعلى حين أن طبيعة بلادكم، على ما يقال، تدفعكم للتأمل ؛ فإن طبيعة تعطف بأنفسنا نحو التعاسة أو الفرح. إن بعض الخيالات المجهولة فوق الجليد أو الخطوط الحمراء لجسرٍ تستيقظ للحياة فجأة ؛ فتصبح هي الرسائل المتناغمة التي تحيي لتحدثنا عن أنفسنا. سواءً كان واقعياً أو متصوراً، ذلك الذي يوقظ حساسيتنا أ،و يتوافق معها، فإن مشهداً طبيعياً هو إحساسٌ مُتَجَلٍّ. وهذه الحقائق التي نلدها هي فخاخ تقريبا. دلائل على مشاعرنا. لها علينا قدرةً طاغية،

وتحولاتها تبعث فينا الاضطراب العميق. إنني أتذكر الحديقة التي نَسَقَهَا واحدٌ من أجدادي في القرن التاسع عشر بالقرب من أموي بمساعدة بستانيّ وقد اختار أبواي للذهاب إلى هذا المكان، غسق يومٍ من أيام نهاية الصيف، الذي يتميز بنعومة شديدة، ويتنسمُ بالكمال، في هذا الإقليم. وقد وَصَلْنَا متأخرين. كان الظل الصاعد من الأرض يحو حدود الأشكال ؛ وبدا أن صفاء الحديقة، كأنما ظل ثابتاً لا يتغير، على طول القرون. شيئاً فشيئاً، بدأ سلامٌ وريحٌ يُغطي المكان حتى هيمن تماماً على كل شيء، كما لو أنه يُداوي نقاء الحديقة الذي جُرِحَ بحضورنا. كانت الأشجار التي أحبها الجدود، تتمايل مع إيقاع الريح الساخنة، وتبدو كأنما تَزِنُ ملياً هذا المشهد الطبيعيّ بهذه الصخور الأرضية، وهذه البرك والروابي، على حَظِّ الأفقِ البحريّ المتأرجح.

مرَّ شعاعٌ بطيء واحد من تلك الشعاعات التي لاضوء لها تقريبا، الملونة بشكل صارخ، التي ترسلها الشمس عند غروبها، وتُخلِّلُ جذوع الأشجار، أضاء بغتة جانباً من الحديقة، فبدت على البُعد بضع فيللاتٍ على الطراز الأوربي، كانت غير ظاهرة حتى هذه اللحظة. كانت الفوضى باديةً على أروقَتِها وأشجارها الصغيرة، ودَمَرَ حضورُ هذه المنازل الغريبة على هذا النحو بشكلٍ وحشي هذا الجمال الهادئ الذي أضنته السنوات التي تراءت ببالي وهي خجلة تماماً أمام حياته البطولية، آه يا مملكة الورع،، أيا ما كان مجدك القديم وتُبلِّك ؛ توجد ساعةٌ لا يستطيع القلبُ فيها إخفاءً الاجتياح الذي تجتاحينه له، وينزف... إنها ساعة الصمت المهلك.

ساعة أعرف أن لا نظير لها، ساعة وحدة لا تعادلها ساعة
 أخرى! في احتضار الآلهة مجتمعة وجدت عاطفة لم أنجراً على
 طلبها من عزتها، كان الدم الذي يسيل على أجسادها يدمرها
 كأنها شعل ويظهرها كأنها أضواء هذه الشعل... لقد أحبت
 صورها القتيلة بأكثر مما أحبت ذكراها، فموتها قد وصلني بها
 عاطفياً، والمراهق الذي كنته أملكته زمناً طويلاً الرائحة الطاغية
 لدمها الأرضي.



منه إليه

باريس.

السيد العزيز،

تجدد طي هذه الرسالة صورة فوتوغرافية لقناع أثري من البرونز. أرسلت إلي من الصين، وأرسلها بدوري إليك. هذا القناع يعود لعهد أسرة هان، وهو عبارة عن عينيّن وخط محفور يحدد الأنف. إنه يُذكر بالرعب، هو لا يبتعثه؛ وإنما يُذكر به فقط. فالقم الذي يُعبر عن الأحاسيس في كل النحوت الغربية، ليس مصوراً بالمرة في هذا القناع. إنك تعرف مثلي بجمال الصور التي قامت بنحتها البوذية المشوشة بالفلسفة الإغريقية على سفوح جبالنا. ورغم السلام العقيدي الساكن في العيون المغمضة لهذه النحوت، فالصين الدنيوية والدينية معاً لم تكفّ خلال عشرة قرون، عن محو كل ما بها من إحياءات إنسانية، وإتلافها، وتحويلها إلى موضوعات للحلم ورموز ألوهية، بطريقة غير محسوسة، وعبر المحيط الثابت. إن أشكال كاتدرائياتكم قد اختفت بنفس الطريقة. هنا وهناك، ومثلما يتبعثر ضوء النهار الرقيق إلى نجوم، يتحطم الكمال اللامحدود للفن الملكي في ألف موضوع محدد. لكن هذا التبصر، في الصين، هو التفتح المضى والغريب للحلم؛ وهو في أوروبا، التبصر في الرجل والمرأة، وفي ملذاتهما. فوق القاعدة الخالية لتماثيل الحكماء، تجدون أنفسكم أنتم بذاتكم، ونحن نجد

أنفسنا محاطين بالوحوش الأليفة، علامة الحكمة.

إن استخدام الخواص الرمزية هو بالقطع ما يُعيقنا عن فصل الأفكار، بمثل ما فعلتم بهذه الحساسية التشكيلية التي هي لدينا مرتبطة دائماً بالأفكار. إن فننا التصويري، عندما يكون جميلاً، فهو لا يُقلد ولا يَصِف: إنه يُمي. إن العصفور المرسوم هو إشارة خاصة للعصفور، ملك لمن يفهمونها وللرسام وهو كالعلامة المميزة: فالعصفور عندنا هو الرمز العام. وبإدراكي الآن لفنكم، فإن فننا يبدو لي كالغزو المتمهل، والمحدد للحلم والإحساس عبر الرمز.



من أ. د إلى لينغ

باريس.

السيد العزيز،

إن الذكاء المنظم على نحو مُحكم، يهيمن بيسر على التعبيرات الإنسانية، لأنه يجبرها على ألا تكون سوى حُلٍ لنظام القيم الذي أقامه. مجرد زخارف وروائح للفكر... وعلى الدوام تَجهدُ عقلية الغرب في إعطاء الأشياء التي تحصلت عليها من القيم طابعاً مرغوباً. وهذه العقلية بها نزوع لغزو الزمن، وجعله أسيراً للبنى الشكلية لكن هذا النزوع نفسه ليس سهلاً سوى في عالم تَمَّ تنظيمه عبْرَها. فهي التي تتوج نفسها، وتحكم بالإعدام على ما لا ينتظم معها.

إن الزمن يُفرحها اليوم، وهذا الشعور الجديد الذي نَجده في الأفعال وفي المشاهد الطبيعية، هو الضرورة الملزمة لها. حيث نجد بنظرتنا السريعة لهذه الأفعال والمشاهد أنها قد أسبغت عليها ويمثل ما تُغيّر مياهُ البحر العميقة شيئاً فشيئاً من ملامح سكانها بما يقتضيه المشهد التصويري لمهرجاناتها البيولوجية، فإن حضارتنا، المتلبسة في فنائنا، جعلتهم لا يستطيعون الإمساك بعالم لا يقبل إيقاعها الذي تشكلوا بها، وعندما أتذكر أحيانا، مناظر أشجار الليمون حيث تُوجّه الجبال طبقاتها المتوازية في

مثلث متعاكس مع السماء ؛ أو مناظركم الطبيعية في الجنوب،
المتقنة كالرسوم. فإن فننا يبدو لي عندئذ كأنه فنٌ أت من كوكبٍ
بعيد، وأوآسي نفسي حين أستخلص من تركيبته متعةً معقدة،
على التعاسة الهائلة التي يمنحها لي اليقين، بأنه لا يوجد فنٌ لا
أستطيع فهمه.

إن الأوروبيين تَعَبُونَ من أنفسهم، تعبون من فرديتهم
المنهارة، تعبون من تعاليهم. ذلك أن ما يدعمهم هو بناءٌ هشٌّ من
المتناقضات، أكثر من كونه فكراً. إنهم قادرون على الفعل إلى حد
التضحية، لكنهم مليئون بالتقزز إزاء إرادة الفعل التي تقتل
جنسهم اليوم، ويريدون البحث وراء أعمال البشر عن سبب للوجود
أكثر عمقاً، فدفاعاتهم تنهار تباعاً. وهم لا يريدون أن يختلفوا مع
ما يترأى لحساسيتهم، ولا يستطيعون بعد أن يتخلوا عن الفهم.
والنزوع الذي يدفعهم إلى الفرار بأنفسهم، يأتي عندما يقدر
أعمال الفن التي تأسرهم أفضل من غيرها. والفن هنا هو الحجة
الأكثر رهاقة: فنحن نعرف أن أكثر الفتن جلالاً، هي تلك الموقوفة
على التمييزين. ولم يعد هناك عالم للخيال تم كشفه عبر الغزو، لا
يسعى وراء اليوم، في أوروبا، الفنانون القلقون. إن القصر
المهجور الذي تهاجمه ريح الشتاء، روحنا التي بدأت تتفتت شيئا
فشيئا، ما فتى ينشر حرباءته الملونة. نعم، فمن يتأمل الأشكال
الفنية التي توالى في أوروبا منذ عشرة أعوام ولا يرغب في
الاجتهاد في الفهم مطبوع بالجنون، وهو جنونٌ واعي بذاته ومكتفٍ
فهذه الأعمال، والمتعة التي تحملها، يمكن تدريسها كلغة أجنبية،
ولكنها تُخفي عبر تواليها، كما يخمن البعض، قوةً معذبة تسيطر
على العقل تُغيّر بلا انقطاع بعض مظاهر العالم من خلال النظر

إليها بأعين جديدة. وهناك، في هذا البحث، مهارة حاذقة تتطلع نحو الإنسان بطريقة المندھش، فالأحلام التي تتلبسنا تستدعي أحلاماً جديدة في شكل تجرب به سحرها: نبات، لوحة أو كتاب، إن المتعة الخاصة التي يجدها البعض في اكتشاف الفنون المجهولة تتوقف عند الاكتشاف، ولا تتحول إلى حب. وعندما يجيء لنا، من الأشكال الأخرى التي تؤثر فينا، ما لا نحب، نصبح كالمملوك المرضى يأتي لهم النهار بأجمل هدايا الملكة، ويعيدهم المساء لجشعهم الملازم واليأس...

إن التوعلك الأوربي، هو ذلك الذي سببته الكشف في العقول للأسف! بقليل من البراعة. هل تعرف بغزوة إسبانيا الجديدة؟ لَكُمْ يبدو صوتٌ ساهاجون، وهو يَجشُّ في وقارٍ، بين أسطر النص الإسباني، عندما يُقَصُّ أنه زار، عند دخوله المكسيك، في قصر الملك، «الحدائق التي لا تشبه في شيء ما يمكن أن تصنعه يد آدمية، ورأى، في القاعات السفلى، مجموعات من الثعابين والأقزام التعسة...». إن التعاسة التي أريكت ألأب اللاتيني في أعين أقزام بلاد الهند الغربية قد عرفناها، وقهرتنا في الأعمال الأثرية، وفي الروائع التوسكانية، ثم في هذا اللوفر، حيث اللوحات التي جَمَعَهَا نابليون، تُربك بترتيبها على أساس تعاقبي فقط، الفنانين الأكثر أصالة من بين أصحابها. ومع ذلك فلم تكن أوروبا ولا كان الماضي هو الذي غزا فرنسا مع مطلع هذا القرن، لقد كان العالم بأسره، العالم بكل حاضره وكل ماضيه، وبكل قرايبه المتراكمة في أشكال حية أو ميتة أو تأملات، إن هذا العرض المرتبك الهائل الذي بدأ، هو يا صديقي العزديز، واحدٌ من إغواءات الغرب.

كان في انتصار الأشكال على العقل شيء أعمق من قوة المتعة، أو الإعلاء من شأن حساسية فظة إلى حد ما. فالمتعة الشهوانية، ومتعة البحث عن الجديد، تُغويان الأنفسَ الحقيرة بسهولة، ولكنهما تصبحان مجردتين من القوة أمام مَنْ تجهزوا لقتالهما. وفي الحقيقة، فإن ثقافة ما، لا تموت إلا بضعفها الخاص. ففي مواجهة المبادئ التي لا تستطيع استيعابها، يكون مقضياً عليها بأن تجدد في تدمير هذه المبادئ عنصر بعثها. أو الفناء. كذلك نرى في أوروبا كلها، مولد لعبة الخبرات الفنية المريعة في بعض الأحيان. بما أن كل ما أمكنت تجربته عبر ثقافة ما له من العناصر ما لا يمكن أن تتوجد إلا عبر حضورها في الإنسان. إن البعض ممن يعطون الانطباع بأنهم أحاطوا بالأشكال والأفكار الشديدة الحركة، يعطون التأمل التأثير لهذا الكون المتحرك قيمة أعلى بكثير من القيمة التي يعطونها لإرادة تعيينه.

فضلا عن أنهم لا يستطيعون أن يجدوا صورتهم الخاصة إلا في هذا التأمل، وهم لذلك متطلعون، ولبعيد...

ولكن لاشيء يستأهل العطف، قدر محاولاتهم الخشنة، والعنيفة، والقلقة للعثور على القيمة الضائعة. إن «أوريغ دلفي» و«كوري بودور» و«تمائيل المسيح الرومانية» و«رؤوس سايت أو الحمير» والبوديساتفا (ري وتانج)، والفنون البدائية لكل البلاد، هذه الأعمال قد تم اصطفاؤها قبل كل شيء للإرادة التي تجعلها لا تُغوي إلا مَنْ يشعرون بها، كذلك بسبب معمارها الذي يلونه بالكاد الانفعال وهو المشترك بينها وبين ما نرغب في تسميته بالجمال. وهذا هو انتقام الروح في هذه الأعمال، فنهر الحياة يهدر

فيها كُتِبَ تحت أَرْضِي، ولكنه يُسَبَّحُ عليها هذه الأشكال العظيمة
والبسيطة التي تُمكنها، بعد ذلك، من التسلُّطِ على الأشكال
الأخرى، وإخضاعها لتأثيراتها.

وحيث إن هذا العقل الذي يرفضُ الإقرار بحكم القيمة
الواقعية، قد قادته قوته الذاتية لأن يعي حاجته إلى تأصيلية
سلبية، مستندة بأكملها تقريباً على رُعبٍ واضح من الإغواء. فإن
الفن الذي يرغبه، يحصل عليه بالعلاقة شبه الرياضية بين أجزائه،
أكثر مما يحصل عليها بالرؤيا في عمل فني. وإن إشباع رغبة ما،
لأهون بكثيرٍ من معاناة ثقافة هاجمت بلا توقفٍ لكي تُخضع
القوى المعادية وحياتها نفسها، هي ألدُّ خصومها.



من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

إن عالمنا ليس خاضعاً، مثل عالمكم، لقانون الأسباب والنتائج، أو، على وجه الدقة، هذا القانون، الذي نُسلم به، هو بلا فاعلية لدينا ؛ فهو لا يقبل ما هو غير قابل للإثبات. فالحدث غير القابل للتفسير ليس بالنسبة لنا نتيجة لسبب مجهول إلا لأنه ينتج من حياة نُجهلها. ومن هنا القيمة التي نعترف بها للحساسية. والتقدير الذي نُكُنُّه لها وللمعرفة المتحصّلة لدينا منها والتي تبدو لي متفوقة على نظيرتها لديكم.

ومع أنني لم أعد مؤمناً بتناسخ الأرواح. فإن حساسيتي تتماثل مع الحساسية التي كانت لأبي ؛ ويقدر ما في خزياتنا من جاذبية، فإنني أذوق منها ما ليس به صفة المحدودية، وما ليس واقعاً تحت تأثير كل هذه العلاقات الجافة التي تقتلك حكمة لكي تحصل على اليقين بخصوصياتك.

ومن المؤكد، أن الفكرة العجوز لتناسخ الأرواح قد نَمَطَّت الحساسية الآسيوية، بِمثل ما نَمَطَّت فكرة المسؤولية حساسية الغرب. ولكنكم تفهمون هذه الفكرة على نحو سيء. لأنكم تترجمونها. فلا أحد منا ومنكم لا يعتقد بأنه كان في الوجود السابق على

وجوده هذه أو تلك من الشخصيات المجيدة، وللتعبير عن تفكيركم بدقة، فإنكم مرغمون على القول بأن الأمر يتطلب هنا، مأور جسمانية مختلفة تنتقل فيها نفس واحدة. وهذا الإيضاح لا يعني بالنسبة لنا شيئاً، لأننا لا نستطيع القولُ بخاصية الثبات التي تُسبغونها على ماتسمونه النفس. فنحن لا نستطيع أن نُرتب شخصيات عديدة في أعقاب الأخرى ؛ ونحن كذلك لا نستطيع أن ندرك الشخصية. إن فكرة الوجود الفردي نفسها كانت إلى حد ما ضعيفة عندنا، حتى الثورة، وكان الآباء يُعاقبون مع أطفالهم للأخطاء التي ارتكبوها في غفلتهم.

إن الأشكال المتعاقبة ما ليس بينها علاقة سوى تلك التي بين السحاب والنباتات التي تنمو على مطره. أنتم تعرفون أن المخلوق ليست لديه ذاكرة لأي من حالاته السالفة. إنه من الصعب تحديد هذه الفكرة عبر المنطوقات الأوربية. ولكنني أستطيع القول على الأقل بأن ماتم ترجمته بعبارة «إنك ستولد ثانية يا ابن آوى» كان يمكن أن يكون أقل سوءاً إذا ترجم بعبارة «عند موتك، سيولد ابن آوى ما، من أفعالك». بما أن الأمر يقتضي هنا التعبير عن فكر الأجناس التي لا يعرف فيها ابن آوى أنه كان إنساناً، فلا يخضع سوى لقوانين الحيوانات، تلك التي يترتب عليها أن لا يكون المقدور موسوماً بالوعي الذي حصلت عليه الذات وإنما بالتغير الأدنى الذي تأتي به إلى العالم، وفضلاً عن ذلك، فأني أعتقد أنها التواجد عبر قدر غير بشري؟ ستضيع في هذه العجماوات وعذابات البشر. فالوحيدون القادرون على الوعي، لا بالأقدار الخاصة، وإنما بطبيعتها المشتركة، هم الحكماء الذين يدركون المطلق الذي يهيمن على الاضطرابات العيشية الأرضية.. وإنك

لواجدُ هنا البنيةَ المتفردةَ للتفكير الشرقي، والمتماسكة أيضاً تماسكَ أي فلسفة غربية، والتي لا تتجمع خطوطها سوى في اللانهائي، مثلها في ذلك مثل تلك الحداثق بكشمير التي تشيدُ مناظيرها على ممراتٍ عظيمة مفتوحة على السماء وعلى جبال الثلج البعيدة...

إن المشاهد الطبيعية لبلادكم لا تُشوشُ أبداً فكرةَ جدارة الإنسان، العزيزةَ عليكم. فلا يوجد عرض الطبيعة الذي لا تستطيعون مقارنته بعمل إنساني. فقرة الجبال التي لا تستدعي الأحاسيس بالعظمة الهادئة، لا تعطيكُم ما تعطيه الحركات غير المنتظمة للحضرةِ قميل وتقوم، وتسقط مع اندفاعٍ مندفعٍ بسرعة هائلة نحو البحر، من إحساسٍ بوجود قوة أعظم من قوى الإنسان. و أتحدث عن قوة إلهية. بل على النقيض فالخاصية اللابشرية. غير المفهومة، نُبْتُ لهذه القوة التي تأسرننا عندما نعيها .

بين العقل الشرقي والعقل الغربي اجتهادُ للتفكير، إني أومن أولاً بإدراك اختلافٍ في الاتجاه، أقول تقريباً في المسار. فالعقل الغربي يسعى لرسم خريطة للكون، بإعطائه صورةً سهلة الإدراك، بمعنى أنه يُقيمُ بين الأشياء المجهولة والأشياء المعروفة سلسلةً من العلاقات الحساسة بغرض فهم الأمور التي لازالت غامضةً للآن. وهو يرغبُ في إخضاع العالم، ويجد في فعله هذا قدراً أكبر من الاعترداد الذي يعتقد فيه لنفسه. وعالمه أسطورة متلاحمة. أما العقل الشرقي، فهو على النقيض، لا يسمح بإعطاء قيمة للإنسان في نفسه، ويتفنن في أن يجد في خلجات العالم الأفكار التي تسمح له بقطع الروابط الإنسانية. فالأول يرغبُ في

أن يحمل العالمَ إلى الإنسان، والثاني يقدم الإنسانَ قرباناً للعالم.

ولعلّ الذين يرون في قماثيل معبد اللاما مجموعةً من العفاريث الغريبة لا يفهموننا بشكل يزيد سوءاً عن فهم حكماكم، الذين تتضاءل أمامهم فكرةُ الرمز لتصبح مجردَ حرائرٍ مطرزةٍ بالعلاقات السحرية أمام آلهة المعبد. إن الحياة هي المجال اللانهائي للممكنات. فالصنم المتعدد الأذرع، المسمى رقصة الموت، لا يُمثلُ كُنَاياتٍ عن العالم المتحول المتتابع بل هو تعبير عن الكائنات المتشربة بحياة لا بشرية، مما يجعل هذه الشرع ضرورية. ولابد من تأملها كما تتأملون الحيوانات البحرية العملاقة ذات القشور الصلبة التي. يأتي بها صيد الأعماق البعيدة. فهذه وتلك تبليبلتنا وترباننا في آن معاً ما هو بسيطٌ فينا وتُلهمنا بفكرة الموجودات التي لا تربطنا بها أواصرُ شَبَه. لكن الأولى ليست سوى صورٍ مسلحة بالرمل، بينما تُمثلُ الأخرى الشُّفَعَاءَ من أصحاب القدرات التي تفوق قدرات البشر.

إن إبداعَ صورِ الآلهة فنٌ مقدسٌ لذا فحالات التأمل الطويل للفنان، والحياة النقية، وزهد الصوامع، هي فقط الوسائل التي تمكنه من أن يستكشف في نفسه إحساساً غامضاً له من القوة ما يُجبرُه على أن يقدمَ شكلاً جديداً، هذا الشكل الذي تولد من افتتاحِ معذب، والذي لا يقدم نظريةً لمن سيشاهدونه، وإنما ارتباكاً خاصاً، انفعالاً أمام واحدة من قوة العالم.

أن أكتب فهذا رسمٌ لانفعال ما، والذي يوقفكم عندما تحاولون فهمنا، أن الفكر والانفعال، بالنسبة لنا شيثان غير منفصلين. إن الفكر مُتحدٌ بحياتنا اتحادَ الحبِّ بحياتكم. وأنتم تعتقدون أنكم

ملكتم معرفةً للعالم بمظاهره وحيواته العديدة والمتميزة، بيد أنكم لم تجنوا سوى مرض فركم الذي يحملكم على مثل هذا الإدراك. لقد ميزتم في الإنسان بعضَ الأحاسيس، وأسبابها المشتركة على نحو عام ؛ ولكنكم تعتقدون أنه يوجد فيما مضى إنسان، شيء من الديمومة غير متحقق. وحالكم في هذا شبيه بحال الحكماء الشديدي الجدية الذين يلاحظون بدقة حركات الأسماك، ولكنهم لا يكتشفون أن هذه الأسماك تعيش في الماء.

بإزاء عالم مبعثر، فإن حاجتنا الأولى للعقل هي من أجل التمكن منه. ونحن لا نستطيع أن نمارس هذا على صورته، بما أننا حساسون أولاً لكونها عابرة، إننا نريد أن نفعل ذلك على إيقاعاته. ومعرفة العالم ليست في إقامة نظام، كما أن معرفة الحب لا تقوم على التحليل. بل في الحصول على وعيٍ حادٍّ به. ففكرنا (عندما لا يكون في خدمة الممارك الدوجمانية) لا يتمثل كفكركم في كونه محصلةً للمعرفة. ولكنه يتمثل في عملية التجهيز والتحضير لهذه المعرفة فأنتم تحللون ما جربتموه، ونحن نفكر لكي نحجرب.

وبالنسبة لمفكر الشرق الأقصى، فإن معرفة واحدة هي الجديرة بالاكْتِسَاب، وهي معرفة الكون، وهو يجتهد لِيُخلَق في نفسه، بحسب القواعد المعمول بها، حالات فكر وحساسية تستمر في التجذّر عميقاً على نحوٍ تبادلي ؛ لتنحو نحو أصلها. في توجهٍ خاص لتُفَضِّي إلى إعطاء نظرات العقل المُفْتَرَضَة، خاصيةً لليقين.

إن العالم هو النتيجة للتضاد بين إيقاعين يتخللان كل الموجودات. وتوازن هذين الإيقاعين المطلق هو العدم ؛ وكل خلقٍ

يجيءُ من تمزق هذا التوازن، ليس بُكنته إلا أن يكون اختلافاً. وهذا الإيقاعات ليس لهما من تحقق سوى بالمعيار الذي يستخدم في التعبير الإنساني عن التعارض، بدءاً من التعارض بين الذكر والأنثى حتى التعارض بين أفكار الديمومة وأفكار التحول.

ونحن لدينا بالطبع الشعور بالكون مثلما لديكم الشعور بالوطن، ولدينا حالات الحساسية التي تعينه، والتي لا تختلف إلا في أن تقدسنا للكون ليس قائماً على اختيار وكما تعطون للشعور بالوطن هيكلاً تاريخياً، فإن مفكرنا متلبسون بمذهب. وهؤلاء التاويون يقولون بالإيقاعات، كما يقول مفكروكم بالأبنية. ونظريتهم هذه تعلمهم ألا يروا في الأشكال إلا أشياء تافهة، ولدت بالأمس الآن ميتة تقريباً، متشابهة في هذا مع الأمواج في الأنهار الأزلية.

من ثم، فهم يقومون بفعل من شأنه أن يعمل على إفقادهم الوعي، وأن يعطي لحساسيتهم حالة فائقة الحدة، هذا الفعل الذي يتمثل في تنظيمهم لتنفسهم بطريقة خاصة، أو أحياناً يتمثل في تحديقهم بمرآة لفترة زمنية طويلة. وعبر هذا التركيز، تنمحي الصور التي ارتبطت لديهم في مبدأ الأمر بالتحديق أو التأمل؛ فلا يبقى في أنفسهم سوى فكرة الإيقاع، وهي المرتبطة بالقوة المعبودة، وهنا، تتصاعد معاً، الفكرة والعبادة، حتى فقد كل وعي. وهذا هو الاتحاد مع المبدأ، ذلك الاتحاد الذي لا توجد وحدة الإيقاع إلا فيه.

من أ. د إلى لينغ

كانتون.

صديقي العزيز،

للأسف كل ذلك يبدو لي متعسفًا، كتعسف أسوأ النظم،
وكتعسف أكثر فلسفاتنا زيفًا. إنني أرى الجهود التي تبذلونها
لكي لاتفصلوا، يمثل مانفعل، بين الفكر والعالم، حتى تجنوا ماهو
أكثر من السرور المتعالي الذي يحمله الغرب. (إن التحكم في
التنفس، الأمر الذي يحتج ضده على نحو دارج، الأوروبيون الذين
تعرفهم، يستوقفني قليلا، فقط فيما إذا كان ذلك من أفعال
السحر السفلي). وأعلم أن مشاعركم أكثر حساسية من مشاعرنا
في الإحاطة بالموضوعات اللاشخصية: إنكم تحنّون على الأسلاف،
سواء كانوا أحياء أم موتى بأكثر مما تحنون على نساكنكم ؛
فالتعليم الذي تتلقونه ينصبُّ على تقوية حساسياتكم التي
تتطلب التجريد، والتجريد يمكنكم من جلاء حواسكم، وكذا
استخلاص كيائها النقي بشكل أسطع مما تتحقق به بواسطة النساء
أو الذهب أو السيطرة.

إنني أجد في أصل سعيكم هذا فعلاً إيمانياً. لا يتمثل في
وجود المبدأ؛ وإنما في القيمة التي تُسبغونها عليه. ففي لحظة
بلوغ شدة الوجد، لا يتحقق المفكر في المطلق كما يعلم حكماؤكم ؛

فهم يطلقون تسمية المطلق على النقطة القصوى لحساسيتهم. ومن واقع برهان فلاسفتكم: فإن حالات شدة الوجد المتماثلة، بما أنها جميعاً تبدأ من حيث ينتهي العالم، تبدو لي باطلة، كما أن النتائج المترتبة عليها باطلة أيضاً. فليس هناك تماثل سوى بين الأشياء المحددة ؛ أما غير المحدد فلا يتماثل أبداً مع نفسه، وإنما هو خارج عالم التماثلات. فالأمر لا يتطلب هنا سوى فقد الوعي بطريقة ما. يقولون لي «إن ذلك هو العثور على الوعي نفسه، بوصل النفس بالعالم» وقد رغبتُ في أن أرد «بأن وعياً ما، هو بالضرورة فكرة...» أما أجمل رؤى الموت فليست سوى حلٍ للضعف...

إن ما يشغلني -في كل هذا- الأهمية المعطاة في هذه الحركات لكون الحساسية لا تَدِينُ إلا لنفسها ضمن تجاركم، وبين ظهرانينا، نحن الغربيين، أرى من البشر مَنْ توصلوا لتحديدات للحياة ؛ وأشك في أن نكون جميعاً مدينين لهم. إن لي على وجه التقريب عامين أراقب فيهما الصين، وما تغير في نفسي أولاً هو الفكرة الغربية عن الإنسان. فلم يعد بمقدوري أن أستوعب أن الإنسان مستقل عن طاقاته الكامنة. ويكفي أن نقرأ معالجة نفسية نشعركم أن أفكارنا العامة والأكثر ذيوفا يبدو زيفها عندما نستخدمها لفهم أفعالنا. فقيمتها تتلاشى بقدر ما يتقدم بحثنا، ودائماً نصطدم باللامفهوم، بالبعث، أي بالنقطة القصوى لما هو خاص.

ألا يكون مفتاح هذا البعث في الطاقة الكامنة المختلفة دائماً والتي تُرادفُ الحياة؟ لقد تأثرت هذه الطاقة بحياتنا الإرادية،

المعروفة، وحياتنا الخفية، وامتدت بفعل التوهّمات، والأحاسيس السرية إلى الحرية المطلقة. فأن يحلم رجل بأن يكون ملكاً، أو عاشقاً سعيداً، هذا لا يُغَيّر من شيء في تصرفاته اليومية، لكن الحب، والغضب، كعاطفة أو كصدمة يجعلانه يفقد السيطرة على نفسه: ما لو أن تصرفات الآخرين تدوي داخله بالقوة أو الضعف؛ بحسب حالة ابتهاجه أو اكتنابه... إن قرئر هو اقتراح الموت... لكن هذا الاقتراح مقبول من البعض في لحظة ما... والحب، الحب الذي يجب فصله عن امتلاك امرأة، الحب المتبادل، ألا يعدو هو الآخر أن يكون غابة غريبة، تُحلّق فيها الحساسية فوق أفعالنا وإرادتنا، لتمرّح وتضيق بفرحها، وفجأة تغادرنا، كما لو أنها شَبَعَتْ من عواطفنا، التي لم يعد باستطاعتنا احتمالها؟ بما أن تحورها بذاتها مضمونٌ بأكثر من تحورها بالأحداث. إن الحياة الباطنة هي انتصار اللائقين، وسعي محتوم بلا هوادة استرجاع صدفة فريدة.



من لينغ إلى أ. د

باريس.

السيد العزيز،

عجبا، مَنْ الذي فكّر في إنكار أن كل هذا يتأسس على ما أسميته فعلاً إيمانياً؟ هذا الفعل الذي هو، العَسَفُ عَيْنُهُ كما تقول. وهذا حقيقي ما هو إذن الذي يسمح لكم بالعيش مع البشر الآخرين، وفهمهم؟ وهل لأنكم تُقيمون اعتباراً مشوباً ببعض الريبة لحضارتكم، تعتقدون بأنكم قد سَلِمْتُمْ من موتاكم، وحاجاتكم، وهذه الصدف المأسوية التي تقبع في عمق حياتكم؟ إن خطابي، فضلا عن هذه الأسئلة لا يهدف إلا لأن يُريك طريقاً، وآخره. إن حركات الحساسية تهمني عندما أكتب لك، كذا بعض الخلافات المتعلقة بشكل خاص، كما يليق، بما يستبد بكل الوجود الإنساني.

إن المعرفة التي تحصلتُ عليها شيئاً فشيئاً بالأوربيين تدفعني الآن أكتب لك هذه الكلمات، بقدر ما تُعطيني رسالتك الفرصة لذلك. فالحدة التي خَلَقَهَا فيكم لأفكار يبدو لي اليوم أنها هي التي تفسّر حياتكم بأكثر مما تفسرها الأفكار نفسها. لقد كانت الحقيقة المطلقة بالنسبة لكم هي الله، ومن بعده الإنسان، لكن الإنسان قد مات، بعد الله، وأنتم تبحثون بقلق عن

تستطيعون أن تعهدوا إليه بإرثه الغريب. ومحاولاتكم المتواضعة لبناء عديمات معتدلة لا يبدو لي أنها ستُعمر طويلاً...

أيّ وعي يمكنكم الحصول عليه بهذا الكون مما تسمونه الواقع؟ إن هذا هو الخلاف. فالوعي الشامل بالعالم يتلخّصُ في: مُت، وسوف تفهم كل شيء. لكن الوعي الذي لديكم وعي منظم، وبالنتيجة، فهو عقلٌ دعامة فقيرة، وخيالٌ في ماء راكد... إن تاريخ الحياة النفسية للأوروبيين، بأوروبا الجديدة هو تاريخ غزو العقل بواسطة الأحاسيس التي تنشر فوضىَ حدّتها المتساوية لذا فرؤية كل هؤلاء البشر الساعين لتمكين الإنسان بما يسمح لهم بقهر الفكر وبالعيش، بينما العالم الذي يتسلطن عليه هذا الإنسان يصبح، يوماً عن يوم، أكثر اغتراباً، هي بالقطع آخر الرؤى التي سأحملها معي للغرب.



من أ. د إلى لينغ

شنغهاي.

صديقي العزيز،

لقد رأيتُ وانج لو. منذ زمن طويل وهو يشغل فكري.
فالحالة التي كان عليها في عنفوانه. وتعاليمه السرية، والاحترام
الذي يحيط به. يعطون الانطباع بحياة حافلة، عميقة وجميلة.
ولكن لمعرفتي بحقه على البيض لم أسع لقائه كان هو قد رغب
في الحديث معي ؛ وكنت سعيدا بذلك.

كان يقطن بفندق أستور. وقد استقبلني في حجرة واسعة
انجليزية الطراز، وهو عجوز طويل القامة. حليق الشعر واللحية.
أسنانه طويلة، وفكّه واضح، كان من الهُزال بحيث أن عينيه
المختفيتين، خلف العينات التي تحميها، بدتا كبيرتين سوداوين
يفصلها أنفه القصير. رأس ميت، وعينات صَدْفِيَّة، وجَلَاءٌ
عظيم.

بادرني هو بالسؤال. كان ينتظر مني بعض الإيضاحات التي
تُشفي أحقادَه حول أوربا ؛ وعندما عرج الحديث بنا إلى الصين،
قال لي: «لايهم هؤلاء المتوحشين المسلحين بالسيوف، ولا هؤلاء
الملايين من العامة الذين صار هاجسم الخوف من الطعن، بل لا يهم
حتى هؤلاء الحمقى المسممين بالبلاغات الجامعية، إن حالة صفوة

عقولنا التي غزتها أوروبا وجعلتها تَقْنَطُ في آنٍ معاً هي الشيء الذي له الأهمية اليوم في الصين».

كانت هذه هي المرة الثالثة التي شعرتُ فيها من خلال أقواله، أن الصفة الروحية هي الوحيدة الجديرة بالاحترام عنده. وفي هذه النقطة وجدتهُ صينياً خالصاً. فضلاً عن لطف استقباله، الذي على خُلُوِّه من المودة لم يهبط بمستوى الرقي، فصوته الهادئ وحركاته المنضبطة (كان ظفر إصبعه الصغير طويلاً بغير قصٍّ) يعطون انطباعاً بثقافة أكبر بكثير من ثقافة أي من رأيتهُم في أوروبا. كان يبدو كما لو كان منحدرًا من جنسٍ آخر غير هؤلاء الصينيين الذين يشاهدهم المرءُ يُكثرون من الحركات والذين يسمعونهم يَصْخَبُونَ في الأحياء التجارية. كان سر جاذبيته وقوته يكمن بالقِطْع في التناقض بين الصور الغربية لعباراته التنبؤية، وبين هدوء أقواله الذي يتعارض مع ابتسامته، تلك الابتسامة الغربية التي لم تكن جذلة ولا ساخرة.

«إن الذي نراه هو استعراض لقوة خاصة، مسرح للقلق. إنه التدمير، والسحق لأعظم النظم الإنسانية، لنظام تمكّن من الحياة بغير اعتماد لا على الآلهة ولا على البشر. نعم إنه السحقُ! فالصينُ يتمُّ إفراغها كبنية خَرِيَّة، والقلق لا يأتي من اللايقين ولا من المعارك، وإنما من وزن هذا السقف الذي يهتز...

«إن الكونفوشية تنفتت، لذا فهذه البلاد كلها سُدَمَر. فكل هؤلاء البشر يتعاضدون عليها. لقد صاغت حساسيتهم، وفكرهم وإرادتهم. وأعطتهم شعور الانتماء. وشكلت ملامح سعادتهم.

«إن بداية الخراب تُحدّد طابعَ هذا الذي مازال بعد في بدايته. ما الذي سعوا وراءه خلال ألفين وخمسمائة من السنين ؛ تَمَثُّلُ مُحَكَّمٍ لعالم بواسطة الإنسان ؛ وبما أن حياتهم كانت عمليةً أسِرٍّ مُتَمَهِّلٍ للعالم، فقد أرادوا أن يكونوا هم الوعي المتفتت... فالكمال الذي ينشدونه، توافق مع القوى التي وعوا بها، وكذلك...»

ولم أفهم ما أعقبَ ذلك من كلمات فقلت له... «إن هذا الذي يتعارض مع ما تسميه الذاتية ؛ أي خاصيّة التفكيك ؛ أو على الأرجح، رفض كل بناء للعقل. هذا الذي يكتسب تجده عبر رغبة إعطاء كل شيء قيمته العليا من خلال الوعي الذي تحصلَ عليه البعض... فكر كهذا يحمل في ذاته أسبابَ مرضه التي تتلخّصُ في ازدراء القوة. والصين، التي كانت فيما مضى زائدةً غليظة، تبحث اليوم عن القوة، وتحمل إليها ذكاء كل شبابها، كقربانٍ لآلهةٍ شريرة.

«إن العالم لن يعثر أبداً على الأعمال الفنية التي صاغتها، فيما مضى، حساسيتُنا. إنها التعبير عن أرستقراطية الثقافة وعن البحث عن الحكمة والجمال، اللذين هما وجهي العبقرية المحتجبة... أنظر الآن إلى حطامها المحزن وهو يتجرجر على الأرض مع لافتات الدعاية، لنادي أنغو عن أخطأ الاجتماعات السياسية...»

«إن المديرين بماضي الصين بيتنا قد اختلفوا واحدا وراء الآخر، ولا أحد يفهم بعد، ومأساتنا ليست في وجود هؤلاء المهرجين الدمويين الذين يحكمونها، وليست كذلك في أبراج الموت

التي نراها كل مساء. فإذا ما انفتلت امبراطورية السهول الحمراء كحيوان متوحش جريح، ماذا ستحمل هذه الألعاب إلى التاريخ؟»

كان يتحدث طيلة الوقت بهدوء، وبغير ابتهاج، وهو يبتسم.

«إن مأساة أخطرُ مع ذلك تحدث هنا: فروحنا تفرغ شيئاً فشيئاً... إن أوربا تتصور أنها تمكنت من كل هؤلاء الشباب الصغار الذين يرتدون ثيابها. وهم يكرهونها. إنهم ينتظرون منها ما يسميه الناس من الشعب أسرارها: أي وسائل الدفاع ضدها. ولكنها حُكَّتْ فيهم بغير أن تُقوِّهم، ولن تصل إلا إلى أن تُشعرهم -كما تُشعرهم قوتها- بعدمية كل الفكر.

«للأسف، نحن نفهم ؛ وليس بمقدورنا أبداً أن نطابق كوننا اللامحدود، المشغول باللانهاثي، بعالمكم الاستعاري، لأن ما سيتولد عن مجابهتهما، هو أشبه بعفريت متوحش لايعبأ بشيء، وهو التسلطن الأعلى للاستبداد...»

وتوقف عن الحديث متردداً، واتجه بصره صوب ضوء النافذة، وغاب. وحل صمت. في أعقاب ذلك، وفي إلماع لأهمية توجه الكثير من الشباب الآسيوي إلى التاوية، قال بصوتٍ وقور:

«إن الفكر الصيني القديم يتلبسهم بأكثر مما يؤمنون هم به. إن الحماس الذي يدفعهم نحو التاوية لا يعدو أن يكون حماساً لتحقيق رغباتهم، في الحصول على قوة أكبر... واللايقين الروحي في العالم كله يُعيدُ الشبابَ فضلاً عن ذلك إلى المذاهب القديمة: البوذية التحديثية في بيرمانيا وسيلان، والغاندية ببلاد الهند، والكاثوليكية الجديدة في أوربا، والتاوية هنا... لكن التاوية،

وهي تعلمهم بوجود لإيقاعات، وتأخذ بيدهم للبحث عن الإيقاعات الكونية في خطوط الفضائل بكتاب تاوتي كنج(*)، تساعد على فك أواصر ارتباطهم بثقافة تستمد قوتها من أنها أضافت إلى خلائق الإنسانية الثابتة إمكانية الرغبة... فلم تزرع فيهم بالضرورة سوى شراسة متعة الهدم. لقد استثمروا بحياة ويفكر أوروبيين ليس فيهما مآ يعرضانه سوى سخفهما البالغ: اخترع، راكم النقود أو وخذ الأراضي، قُم بالأبحاث النفسية عديمة الجدوى أو قُم بعمل الاستعارات لتفسير العالم. كل هذا عبث. بالقطع عبث. إننا لا نستطيع الاهتمام بأنفسنا، هل تفهم؟ هل تستطيع فهم هذا، أيها الأوربي؟ فهذه العروض التي تدور الآن فينا أو أمامنا، ما الذي بمقدوره أن تجلبه لنا سوى الاستمزاز والبؤس؟...

وتوقفتُ ابتسامته، ومال بجسده ناحيتي، كانت يداه المفرودتان على المائدة ترتجفان بعض الشيء، وتلكت صوته الهادىء نبرة متحسرة. ولكنه عاود الحديث. وعادت البسمة تكرر ملامح وجهه. بينما كان يصحبنى:

«تاريخ عيدنا القومي، كنت أرجو ألا يكون هو المناسبة السنوية لذكرى ثورة أطفالنا المرضى بفكركم، ولكن لذكرى ذلك المساء الذي قرّ فيه الجنود الأذكياء بالجيش المتحدة، وهم يحملون باحتراس الألعاب الميكانيكية النفيسة التي صنعتها عشرة قرون قرباناً لامبراطورية، في الوقت الذي حطموا فيه اللائىء وجففوا أحذيتهم بمعاطف بلاط الملوك دافعي الجزية...»

(*) تاوتي كنج: كتاب «الطريق والفضيلة» للاتوسي

بوصولي أمام المصعد، التفت ورائي، كان إطار الباب الذي
يحيطه قد أحاله إلى ظلٍ في الضوء. كانت يداه منطبتين على
بعضهما. وبما أنهما ارتجفتا ثانية، خُيِّلَ لي أثناء نزولي، أن هذا
يعود إلى الشؤم الناتج عن كونه أهاج احترام لحظات التحية
القصيرة الذي اقتضته طقوس الماضي.



من لينغ إلى أ. د

السيد العزيز،

قرأت لعدة مرات الرسالة التي تَقُصُّ فيها لقاءك مع وانج-
لو، كانت نوافذي مفتوحة، وقد دخل الهواء البارد غرفتي بصحبة
شمس الساعة الخامسة والهمهمات الهادئة للمدينة. فخرجتُ،
تتعقبنني التعاسة والقلق من كلام الرجل العجوز، والآن، مع حلول
الليل، أكتب لك، مفضلاً أن أحدثك عن هذه الأشياء عن أن
أحدثَ بها نفسي.

إنه يُعتَقَد بأن الصين تحتضر. وأنا أيضاً أعتقد ذلك. إن
الصين التي أحاطت بشبابه، بفنها، ورفعتها، وحضارتها التي
صبت كل اهتمامها على الأحاسيس، بحدائقها وابتناسها لنهاية
العالم، قد ماتت اليوم تقريباً. ويعودتها لقعقعات البرونز الأخضر،
فإن صينَ الشمال مُتَحَفٌ دمويٌّ كبير، ولا يحتفظ الزمن حتى
بابتسامة ساخرة لكل هؤلاء القادة العسكريين الذين لم يعد لهم
سوى مطاردة ظلالهم على القمم وفي الصحارى المغطاة بالهياكل
العظمية والمسكونة بالقوارض. إن مقاطعات المركز والجنوب تُذعنُ
كليةً لهذه الحكومة الغربية لكانتون التي تقبض على زمامها
المجترأ، وتكرم الحكماء بتنظيم دعايتهم بواسطة السينماوغراف ؛

وبما أن ما تمكنتنا من أخذه من الغرب هو الأشكال، فالسينما توغراف، وضوء الكهرباء، والمرايا، والفونوغراف، قد جذبتنا كما لو أننا نوع جديد من الحيوانات الأليفة. فبالنسبة لسكان المدن، لا تعني أوروبا أكثر من جَنِي ميكانيكي.

لم تعد هناك صينٌ، هناك نُحْبُ صينية، ولم تعد النخبة العارفة مقدرة إلا بوصفها شيئاً أثريا أما النخبة الجديدة، نخبة هؤلاء البشر الذين استوعبوا الثقافة الغربية فهي مختلفة عن الأولى بشكلٍ يُجبرنا على التفكير بأن الغزو الحقيقي للامبراطورية بواسطة أوروبا قد بدأ.. فلم تعد الهزائم بعد، بل الانتصارات الصينية، هي التي تؤثر بدمار ماضينا. وهذا الدمار لا يمكن تداركه، بما أن أرستقراطية عقلية جديدة - هي الوحيدة التي لم تقبل بها أبداً في الماضي - تتكون الآن: فطلاب الجامعات لهم اليوم نفس المكانة التي كانت للعارفين فيما مضى فهم محاطون بالاحترام الصامت الذي كان لهؤلاء من قبل إن وجود هذه النخبة الجديدة، والقيمة المعترف لها بها شاهدان على تَغْيُر في الثقافة الصينية يعد لتحول شامل. لقد كانت خيارات حضارتنا فيما مضى تنصبُّ على الشيخوخة، فعبّر الشيخوخة ولها قامت هذه الحضارة: كان المتقدمون للامتحانات الهامة يبلغون سن الأربعين ؛ أما اليوم، فهم يبلغون بالكاد سن الخامسة والعشرين. لقد بدأت الصين تحترم قيمة شبابها، أو على وجه الدقة قوته. وبما أن حيوات البشر جميعاً تنعطف اليوم بواسطة الشباب يجب الأخذ سريعاً بيد حضارتنا لتلحق بالركب، فعندما تنكسر مقدمات الجونكات المنحوتة، يتم توجيهها بواسطة البحارة الشباب. إن روح الصين التي ولدتْ لأبدٍ بالقطع من البحث عنها في أجزاء هذه المركبة

العجوز الرائعة والتي مازالت حية تُغوي الشباب. فعلى الأقل، عندما تتماسك بشكل ما هذه الثقافة التي نراها اليوم تضعف، فسوف تحتفظ مجدداً بذلك الجمال الفائق للثقافات الميتة التي تستدعيها ويُزيّنُها النهضات...

إن أقوال وانج -لو يشوبها الغموض. وإنني أعتقد أنها ليست الكونفوشية التي يأسف على انقراضها، وإنما هو يأسف فقط على إمكانات الكمال التي كانت بها. فلقد توصلت لأن تفتح لدى بعض الناس أحاسيس وبصيصاً من الشفافية المؤثرة ؛ فهذه المعجزات الرفيعة، ويلوغ حالة المطلق لدى التاويين هي أمور قد تحققت لقلة من الناس. فالكونفوشية، وبشكل خاص، أخلاقها، لم تتطور أبداً استناداً إلى عقيدة، ولا باتباع نهج عقيدي. إن الأخلاق المسيحية مرتبطة ببعض الشطحات العميقة للقلوب المسيحية ؛ أما الأخلاق الكونفوشية فهي أخلاق اجتماعية، وبفضلها تكونت كما ترى، الميزات والعيوب الاجتماعية لبني جنسي فمقدرة مواطني في الحصول على وعيهم من حالتهم الاجتماعية أكبر من مقدرتهم في الحصول عليه من فرديتهم. إن مثل هذه الأخلاق، الجمالية بالنسبة للنفوس المثقفة، والجبرية بالنسبة للآخرين، لن تثقل على حساسياتنا كما يثقل ظل الصليب على حساسياتكم، وإنما ستظل في وعينا كحزمة مفتتة من القوانين القديمة.

إن أكثر ما يُثير انفعالي، في حديثنا، هي الجُمَل التي عرض بها وانج -لو حالتنا العقلية التي لم يتم فيها إحلال شيء آخر محل ما تم تدميره. فهذا القلق، وهذا المقت الذي يُكنُّه بنو جنسي للأوروبيين، قد خَبِرْتُهُ أنا شخصياً، وإنني أجده في كل الرسائل

التي تصلني من الصين. فشابنا يعرفون أن الثقافة الأوروبية ضرورية لهم ؛ ولكنهم أيضا مُتشرّبون بثقافتهم الخاصة بالقدر الكافي لجعلهم يحتقرون الثقافة الأوروبية. وهم قد اعتقدوا أن بإمكانهم بسهولة أن يتحصلوا عليها ويظلوا صينيين، فحضارة لا تهتم بالأحاسيس، ولا تدركها، يمكن في اعتقادهم، معرفتها بغير خطر يعدو خطر معرفة لغة أجنبية... وقد يكون لأرواحهم المعذبة التي تبدو اليوم تحت سيطرة الحقد والكراهية والتي تواصل النظر بإكبارٍ لجنسها، أن تتصل يوما إلى الاتحاد مع فكر عظيم أو حَدَثٍ صيني عظيم... فمن قُدَّرَ عليه منهم أن يَفْرَ إلى الغرب قُضِيَ عليه أن يكتفي بفراقهم أما هذه الأحاسيس الأوروبية، الشجاعة العسكرية، وحالة ديناميكية الشباب الكانتوني، وحب النساء والحزن الذي لبشرنا الحديث. فهي تعبير عن طاقة وحب فارغين...

كيف يمكن التعبير عن حالة نفسٍ تتفتت؟ إن كل الرسائل التي أَسَلَمَهَا تَأْتِينِي من شبابٍ هَمَّ أيضاً منبوذون مثل وانج -لو أو مثلي، مسلوخون من ثقافتهم وضُجِرُوا من ثقافتكم... لقد تولّدَ فيهم الفرد، وتولد معه فيهم ذلك الميل الغريب للتدمير والفوضوية، الخالي من العاطفة، الذي يشبه حالة التهديد القصوى الناجمة عن الريبة إذا لم تكن ضرورة الهرب قد تسلطنت في كل هذه القلوب الأسيرة، وإذا لم يكن شحوب الحرائق الهائلة قد لمع في أعينهم. آه، كم هو عسير عليكم الإتيان إلينا بروح آسيوية. فموكب أوربا الطويل. يحفه حاملون بيض، ومركبات محملة بكل معية الموت! إن مجوس الإنجيل، سفراء لدى أباطرة مونغوليا، فأَيُّ بؤس تحمله قوافلكم! «لقد جئت إليك يامليكني بكل ما تشتهي

نفسكِ لِكى تموتى»

إن رغبة التحرير التي تجدها في كل نُظْمنا الاجتماعية قد أضعفت هذه النظم ؛ ولكن، تحت كل الأشكال المعروضة للحكومة، وتحت كل مساعي السعادة التي تهزأ بها السخرية المزعجة للقرائن. تزمجر قوة لن يتمكن شيءٌ تقريباً أن يخفيها، ولن تظهر إلا كجيش؛ إنها الرغبة في التدمير... فالظلم هو الأمر الذي يعي به الملايين من تعساننا، وليس العدل. المكابدة، وليست السعادة والنفور الذي يكونونه لزعمائهم يساعدهم على فهم ما يوحدهم هم. إنني أنتظر ببعض الفضول هذا الذي سيأتي ليصرخ فيهم ليبحث على الانتقام وليس على إقامة العدل. إن قوة الأمم تتعاطم كثيراً عندما تستند إلى أخلاق القوة، فكيف ستكون إذن أفعال هؤلاء الذين سيقبلون المخاطرة بالموت باسم الكراهية فقط؟ إن صيناً حديثة تستصرخنا، لأن نقرأ من أنفسنا. أسيكون لها أن تنجو عبر أحد انفعالاتها العظيمة الجماعية التي قلبتها رأساً على عقب في جولات عديدة سابقة؟ لقد صار أقوى من أهازيج الأنبياء، ذلك الصوت الخافت للدمار الذي يسمع الآن في الأصدا البعيدة لآسيا...

ماذا أقول لك؟... إن التجار يشترون ويبيعون، والنجوم الحلي بالضوء تعكس اللاكىء على النهر، فوق الغفلة الهادئة...



من أ. د إلى لينغ

تيان. تسان.

صديقي العزيز،

لكل شخص أراد الحياة خارج بحثه الآني، عقيدة بإمكانها وحدها تنظيم العالم. وعوالم الأفعال، والأفكار، والدلالات التي يعيش فيها كلانا، لا تتناسب إلا على نحو يسير مع الاعتقادات؛ وقلوبنا المتشاقة لا تبدو لي حاذقة أبدا في التلذذ، كيفما اتفق بتفكيك العالم والإنسان لبناء ماهو ضروري فقط، بالقدر الذي يرتبط فيه هذا الضروري بالفضائل.

إن القوة تَخْلُصُ للإنسان مرتين، تَخْلُصُ لمن خلقها، أولاً ؛ ولمن يريد الحصول عليها بعد ذلك. وطوع إمرة طاقة بلا رأس، تعارض عناصر القوة الغربية وتتقاتل ؛ وعلى الرغم من التدابير الإنسانية المؤقتة، فإحساس العالم الذي توجه به غير حتى أن ترغب فيه يفلت من قراء الأخبار. فالانعكاسات غير المتوقعة لأفعال ما تسيطر على هذه الأفعال ؛ والقوى القادرة على تغيير الوقائع تؤخذ سريعا بهذه الانعكاسات فالذكاء يعرفه أنه لا يستطيع أن يمارس فوق لا واقع وبما أنه لا يستطيع إيجاد الموافقة الضرورية بينه وبين الاعتقاد الذي يسوغه. فبالكاد سيتلهم بحيازة وسائل الكذب. ولكن ما أهمية امتلاك بعض الوسائل ضد من هم واثقين

من عددهم وقوتهم؟ وبكثيرٍ أو قليلٍ من الوجود، فإن فكرة استحالة القبض على زمام واقع أياً كان تُهيمن على أوربا. إن القوة الظاهرة حتى في ضعفها، للبابا أو الملك، صارت اليوم لغواً؛ ولم يعد لها هيمنة كافية لكي يتشكل الوعي عبرها من هنا يجيء تَغْيَرٌ عميقٌ للإنسان. يكتسب أهميته من تفسير العوائق التي لألف من السنين سَيَّجَتْ وَحَصَّتْ العالم بالحياة الظاهرية، بأكثر مما يكتسب هذه الأهمية عبر الصرخات. فأن تكون هناك متعة، يا صديقي، لنفس جادة، في تجريب واقع فوضوي، فهي متعة مُسَخَّرَةٌ من الحِمِيَّة، ومسخرة في الفكر الذي غالباً ما يستمد وعيه من عقدة نقص!

إن الواقع الذي يشهد السقوط مُتحدٌ مع الأساطير، ويفضل هؤلاء الذين ولدوا من العقل. فماذا تستدعي رؤيا القوى غير الخاضعة للسيطرة، والتي تُجبر بهدوء وجه الحتمية العجوز، في حضارتنا ذات الإيمان الرائع وربما القاتل، والتي يتحلل فيها كل إغواءٍ إلى وعي؟

إن في قلب العالم الغربي صراعاً بلا أمل، يتوارى تحت بعض الأشكال التي تكشفه لنا: صراعاً بين الإنسان وما خلقه، صراعاً بين المفكر وفكره، الأوربي وحضارته أو واقعه، صراعاً وعينا غير المكثرت وتعبيره في العالم الجمعي عبر وسائل هذا العالم، هذا الصراع أجده خلف كل رجفة من رجفات العالم الحديث ويغرق لبه الوقائع، ويُغرق نفسه، لينبئ بالاضمحلال في الوعي، ويجهزنا بممالك السخف المعدنية.

إن تطور الذات استهدف الغزو بالقوة ولم يستند إلى إجماع،

بل إلى نوع من انتهاز الفرصة، عبر مبايعة، أو عبر القبول بالأفكار المتحجرة لحزب ما. بما أنه ومنذ إضعاف الطبقة أرستقراطية المولد، أصبح لشعور الطائفة عندنا قوة غريبة وإرادة التميز عن الآخرين لا يمكنها الاستناد إلى الغرور وحده؛ فبالإضافة إلى أنه لم يعد في استطاعتنا أن نسلم بأنفسنا من الواقع لنجد، لدينا دائماً نزوعاً للإلحاح عليه عندما نعتقد بأنه صالح لأن يعطينا المتعة: وهو عالم محاولتنا للتبرير. إن عقلية الطائفة عندنا تستند إلى حاجتنا إلى الجديد، ويمكنك بسهولة ملاحظة ذلك مما يدل عليه: فالموضة، معترف بها، بالتأكيد أكثر من قيمة الحساسية الضرورية التي ترتبطون بها. وحيث أمن الموضة -وأمدّها هنا على تغير الملابس، والمواقف، والمقولات- وهي شيء خاص بأوروبا وبالبلاذ التي أثّرت فيها، هي السمة الخارجية التي عبّرها تتشكل أرستقراطية مؤقتة، تخضع لها الطبقات بقدر ما يطول الوقت الذي تأخذه في اللحاق بها وينطبق هذا في العالم الجمعي على الكل، فالتميز، يعني بلوغ حالة من الاختلاف بين الأشياء الخاضعة لنفس النظام. أما في حياتنا النفسية، وفي عالمنا الشخصي، فهو بلوغ حالة من الاختلاف الطبيعي.. فأحد هذين المجالين ينزع إلى تبرير، والآخر، نحو اللاجذوي المطلقة لهذا التبرير. وهما يتباعدان أكثر فأكثر، ونحن نلاحظ هذا التباعد. فأني سخرية في هذا الفكر المزدوج، في هذا الإنسان المستعصي على أن يتمثل من الكون، سوى عناصر عدم القبول!

إن بعض الشباب يُكرّس أنفسهم لتغيير عالمهم الخاص. وهذا يعطيهم الشعور بالاختلاف الذي تحتاج إليه روحهم في الحياة. فيصبح عقلهم خادماً لهذا الاختلاف، ليس له من عمل سوى أن

يريهـم تـظـاهـرات عـالـم مـتـحـلـل، فـأـي إـحـسـاسٍ أـو أـي فـعـلٍ أـو أـي فـكـرٍ يُـجـبـره عـلـى الخـضـوع، كـحـيـوان مُـقـلِّد، يـقـوم بـتـقـلـيـد صـورٍ لـا يـعـرفـها وُيُـظـهـرها كـما هـي. بـما أن الفـكـر، الـذي يـشـبـهُ، يُـطـبَّق عـلـى العـالـم بـأكـثـر مـا تُـطـبَّق عـلـيـه العـاطـفـة ولـعـلَّ قـاتـل الحـيـاة لـأسـبـابٍ أـخـرى أـكـثـر غـمـوضـا مـن تـلك الـتي تـجـهـلـها الـيـد الغـليـظـة للـقـانـون، يـمـكـن العـثـور عـلـيـه يـومـاً مُـتـلـبِّسـاً بـجـريـمـتـه، أـو بـالعـالـم الجـديـد الـذي يـرتـب لـه والـوجـه الشـاذة تـكـشـف عـن نـفـسـها فـي آـمـرة الحـروـب. فـهـل نـحـن أنـفـسـنا الـذـيـن نـتـغـيـر أـم العـالـم هـو الـذي يـتـغـيـر عـندـما تـنـحـسر العـاطـفـة، انـحـسـارَ البـحـر، عـن الفـعـل العـاطـفـي الـذي تـعـارَضـنا مـعـه؟

إن فـكـرنا يـنـسـلـخ بـأكـثـر مـا يـحـدث لـدى هـؤـلاء الشـبـاب الصـيـنـيـيـن الـذـيـن حـدثـني عـنـهم وائـج -لـو... وبيـضـيق هـادىء، نـعي التـناقـض بـيـن أـفـعـالـنا وحيـاتـنا البـاطـنة. وهـذه الـحـدة فـي التـناقـض لـا يـمـكـن تـعـزـيـتـها إـلى العـقـل ؛ إـنـه يـعـي بـها و يـظـل يـطـحن الخـواء، آـلة جـمـيـلة تـطـحـنـها بـعض قـطـرات الدـم... بـمـا أن هـذه الحـيـاة البـاطـنة هـي أـيـضـا البـدائـية الأـوـلى: والـقـيـمة الـتي يـظـهـرها اسـتـبـداد العـقـل لـن تُـنـجـينا مـنـها فـهـو يـقـول لـها: «إـنـك فـي الكـذب، ووسـيـلة للـكـذب، يـامـخـتـلـقـة الحـقـائـق...» و تـرد عـلـيـه هـي: «نـعم، و لـكـن عـلـى طـول الزـمـان، مـع انـتـهـاء النـهـار، اعـتـقـد البـشـر أنـهـم يـروـن الغـنى فـي الظـلال و ما لـديـك أنـت لـيـس سـوى الانـعـكـاسـات الأـخـيـرة لـهـذا النـهـار الـذي اخـتـفى».

مـن أـجـل تـدمـير اللـه، وبعـد تـدمـيره أـبـاد العـقـل الأوربي كـل مـا باسـتـطـاعـته مـعـارـضـة الإنـسـان: و بـبلـوغـه نـهـايـة سـعـيـه، صـار مـثـل رانـسي أـمـام جـسـد عـشـيـقـتـه، لـا يـجـد سـوى المـوت، و مـع صـورـتـها

يصل في النهاية إلى اكتشاف أنه لن يستطيع بعد أن يُكِنَّ عاطفة لها. ولم يحدث أبداً اكتشاف مُقلق كهذا...

لا يوجد المثال الذي تستطيع التضحية من أجله، وبما أن الأكاذيب في كل ما نعرفه، فنحن لن نعرف أبداً ماهي الحقيقة. إن الظل الأرضي الذي يتمدد خلف آهة الرخام يكفي لأن يبعدنا عنها فبأي ضغطٍ يتقيدُ الإنسانُ إلى نفسه! وعن الوطن، والعدل، والعظمة، والحقيقة، أي من هذه التماثيل لا يحمل آثار الأيدي الإنسانية بما لا يجعله يثير فينا نفس السخرية المريرة التي أجبتهما الوجوه العجوز فيما مضى؟ إن الفهم لا يسمح أبداً بكل الأبعاد. ومع ذلك فأني تضحيات، وأي بطولات لم تتحقق بعد ترقد داخلنا...

لا بد، أنه يوجد إيمان أعظم: من هذه التي تعرض الصليبان في كل القرى، وهذه الصليبان نفسها التي تهيمن على موتانا. إنها محبة، وفيها سكون. إنني لن أقبلها أبداً ؛ ولن أنحني أبداً إليها لأطلب السكون الذي يدعوني، إليه ضعفي. إن أوربا مقبرة كبيرة لا يرقد فيها سوى الغزاة الموتى الذين تصبح التعاسة أعمق عندما نزين أسماءهم الشهيرة لكنك لا تترك حولي سوى أفقر أجرد وسوى المرأة التي تعكس اليأس. أيها المعلم العجوز للوحدة. الذي ربما يكون قد مات هو أيضاً، في حياته الخاصة. بعيداً، في الميناء، جنية بحرٍ تعوي ككلبٍ ضال. يا صوتَ النذالات المقهورة... إنني أحرق في صورتي. ولن أنساها بعد.

أيتها الصورة المهترئة لي، إنني لك بغير حب. كجرح كبير لا يندمل، إنك مجدي الميت وعذابي الحي. لقد أعطيتك كل شيء ؛

ومع ذلك، أعلم أنني لن أجبك أبداً. وبغير أن أنحني، سأحمل لك السلامَ قرباناً كل يوم. أيها الصحو المتلهف. إنني أحترق ثانيةً أمامك، شعلةً فريدةً ومنتصبةً. في هذه الليلة المثقلة التي يصرخ فيها الريحُ الأصفر، كما في كل الليالي الغربية التي يردد فيها ريحُ اليمّ من حولي، الصيحاتِ المتشامخة للبحرِ العقيم.



المحتويات

١١	❖ ملحوظة
١٣	❖ على سطح الشامورد
١٩	❖ من لينغ إلى أ. د
٢٣	❖ منه إليه
٢٩	❖ منه إليه
٣٥	❖ منه إليه
٤١	❖ منه إليه
٤٩	❖ منه إليه في اجابة على خطاب غير ذي أهمية
٥٩	❖ من أ. د إلى لينغ
٦٧	❖ من لينغ إلى أ. د
٧٣	❖ منه إليه
٨١	❖ منه إليه
٨٥	❖ من أ. د إلى لينغ
٩٣	❖ من لينغ إلى أ. د
١٠١	❖ من أ. د إلى لينغ
١٠٧	❖ من لينغ إلى أ. د
١١١	❖ من أ. د إلى لينغ
١١٩	❖ من لينغ إلى أ. د
١٢٧	❖ من أ. د إلى لينغ



رقم الايداع ٣٩٩٥ / ٩٥

الترقيم الدولي ٩٧٧-٥٤٠٦-٥٦-٠ I S B N



صدر في هذه السلسلة :

- ١ > أيام من حياتي ❖ هرمان هسه
- ٢ > قصص التحول في الأدب العالمي الحديث
جوجول، كافكا، روث
- ٣ > أثر العابر ❖ أمجد ناصر
- ٤ > من معجزة البدايات ❖ محمد عفيفي مطر
- ٥ > حمار البحر ❖ خالد عبد المنعم
- ٦ > خطوط الضعف ❖ علاء خالد
- ٧ > ممر معتم يصلح لتعلم الرقص
إيمان مرسال
- ٨ > ثمة موسيقى تنزل السلالم
علي منصور
- ٩ > صمت قطنة مبتلة ❖ فاطمة قنديل
- ١٠ > شهرزاد في الفكر العربي الحديث
د. مصطفى عبد الغنى